في عالم الأدب العربي (١)

نظرات فى الادب العربى

جاهليه وإسلاميه

— ٤ —

تيســــير النحو

لعله لم يمرّ فى تاريخ اللغة العربية عهد ، هو أخطر على حياتها من هذا العهد ؛ فلقد اصطلحت عليها عوامل داخلية وخارجية ، غزتها من جميع نواحيها ، وهددتها فى معاقلها ؛ ولولا ما ركّب الله فى طبيعة هذه اللغة من القوى الحيوية ، لألقت سلاحها ، وأرَزَت الى المساجد والمعاهد الدينية كما تأرِز الحية الى وكرها ، وانتهت الى المصير الذى انتهت إليه اللغات التاريخيـة من قبل .

فقد تحقق وكاد يكتمل ، ما تنبأ به علماء القرن التاسع عشر ، من تقدم العلوم الطبيعية ، وترعرعها ، وسيطرتها على سياسة العالم ، وإحكام الصِّلات بين أجزائه المتنائية ، حتى أصبح وكأنه قطر واحد ؛ ولا ريب أن السيادة لن تعدو لغة العلم ؛ فنصيب لغة الأمة من السيادة ، تابع لمقدار حظها من العلم الطبيعى ؛ والعلوم الطبيعية كما تفرض نفسها على العالم لمكان الحاجة الى آثارها ، كذلك تفرض لغتها التى هى مفتاح رموزها ، وكشّاف أسرارها . يقول بعض شراح مذهب دارون فى النشوء والارتقاء :

« والعقبة التى يقـدر لها عمر أطول من سواها ، هى عقبة التفاهم ، أى اللغة ، ولكن العلوم الطبيعية نفسها — بجعلها العالم كأنه مدينة واحـدة بتقريبه المسافات بينه — ستجعل التنازع شديدا جدا بين اللغات ، حتى يقضى على الكثير منها الذى لم يكن له فى هذه العلوم شان يذكر . وكأن البقاء اليوم غير مقـدور إلا للغات ثلاث سيقتصر التنازع فى المستقبل بينها ، وهى الانكليزية والفرنسية والألمانية ؛ وكان الراجح حتى الربع الأول من القرن الماضى أن يكون الفوز للفرنسية ؛ لأنها أسبق اللغات ، وأمتها أسبق الأمم الى المبادئ الاجتماعية الراقيـة ؛ لولا شيوع كتب الأدب الخيالية المجونية ، وعلم الحقـوق اللذين صرفا الأفكار الراقية عن الاشتغال بالعلوم الصحيحة ، وكان ضررهما على فرنسة وعلى العالم أشـد

من ضرر النظريات الدينية ، التي ما كادت تتخلص من شراكها فى ثورتها الأولى ، حتى وقعت من ذلك فى شراك أخرى أدهى وأشد . ففى القرن السادس عشر كانت إيطاليا فى مقدمة الأمم فى ذلك ، ثم فى القرن السابع عشر إنجلترا ، وفى الثامن عشر فرنسة ، وأما فى القرن التاسع عشر ، فالسابقة ألمانيا » اه .

فهذا أحد الأخطار التى تتهدد لغتنا الكريمة ، وهو أنكرها وأبلغها ؛ ويلزمه خطر آخر ، وهو السرعة التى تسود الحضارة الآلية الراهنة ؛ والسرعة عدوة الإعراب ؛ لأن اللغات المعربة تعتمد الفهم قبل القراءة ، بخلاف اللغات غير المعربة ؛ على أن اللغة آلة البيان والإفهام ، فإذا توقفت على الفهم ، انعكس الحال . وعلماء اللغات يذكرون أنه ليس فى لغات العالم ما هو معرب إلا الألمانية ، والحبشية ، والعربية ، ولكن أولاهن فى نهاية الطريق الى التخلص من الإعراب ، وهى بذلك حق جديرة ، بعد أن عرفتَ منزلتها بين أمم العالم .

يضافر السببين الآنفين ، ما ركب فى طبائع الضعفاء من تقليد المتغلبين ، والفناء فيهم ، والإعجاب بكل ما يحيط بهم من عادات ، وأزياء ، وآداب وفنون ، وغيرها ؛ وفى كل أولئك إضعاف للناحية العنصرية ، التى أهم مشخصاتها اللغة ؛ ولأمر ما ، قالوا : حياة الأمة بحياة لغتها .

***

لقد دخل اللحن على العربية الفصحى ، أول عهد العرب بالفتوح الاسلامية ؛ وبقيت الدواوين بلغة البلاد المفتوحة أمداً طويلا ؛ وتسلط غير العرب من الديالم والأتراك وغيرهم على الممالك الاسلامية ؛ ونقلت الدواوين الى التركية إبّان العهد العثمانى ، ولكنه بقى للغة مع كل أولئك سلطانها المتغلب ، يرفع لواءه الخلفاء والولاة والأمراء ، والآداب والدين . فاما فى هذا العهد ، فإن طغيان العلم الطبيعى ، وآثار العلم الطبيعى ، تعصف بالعزائم الصادقة ، التى تنطوى عليها نفوس ملوك الاسلام ، ورجالات الممالك الاسلامية ، وعلمائها وأدبائها ؛ وعذرهم فى ذلك قائم ؛ فإن المدرسة ، والمسرح ، والسوق ، والمنزل ، والنادى ، كل أولئك قد طغى فيه اللون الغربى الوافد ، على كل لون سواه . ومن هنا كانت مهمة المجامع اللغوية ، من أشق المهام ، وأعظمها خطرا ، وكان النجاح المرجو منها محدودا ، لأن آفات اللغة العربية ، تسير فى أنحاء العالم فى إثر الحاجة الطبيعية ؛ فأما عمل المجامع اللغوية ، فإنه متكلف مدفوع بقوى غير طبيعية ، ولا قوية ؛ ولعل أفضل ما فيها إحياء شعائر اللغة ، والقيام على ثغر من ثغورها ، وهو بيئة الخاصة ، ثم الانتفاء من مذلة الاستسلام ، وإلقاء السلاح ، بالدفاع عن حومة مجد العربية ، ولسان الاسلام ، حتى الرمق الأخير .

***

لما ظهرت فكرة « تيسير النحو » ، انقسم الناس بإزائها الى قسمين : ذهب قسم الى أنها

أول خطوة الى التخلص من إعراب اللغة العربية ، باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، على طريقة الدولة التركية ، وهيأهم لهذا الفهم ما قدمت من أسباب ؛ ثم شجعهم عليه ، خطبة خطبها وزير المعارف الذى كان تيسير النحو من إصلاحاته ، رمى فيها الى بعض ما شرحت آنفا ، من عسر القراءة باللغة العربية ، عسراً يوقع فى الإلباس والضلال ؛ فمادة « علم » مثلا ، يحتمل أن تقرأ : عَلِمَ ، وعَلَم ، وعُلِمَ ، وعِلم ، وعُلِّم . . الخ .

وذهب آخرون — وأنا أولهم — الى أن الغاية من هذا التيسير نبيلة ، والقصد حسن ، والثمرة أقرب وأنضج ، من ثمرات طريقة التطويل التقليدية ، التى اشترعها أبو علم الاجتماع العلامة ابن خلدون ، وتابعه عليها الأزهر والمدارس ، منذ كان التدريس ، وكانت المدارس .

ووجهة النظر فى تيسير النحو ، تتجمل فى الاكتفاء من النحو وقواعده بالقدر الذى لابد منه لتقويم اللسان ، كمعرفة الفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر الخ ؛ والتعويل فى تمام إصلاح اللسان على الإكثار من المطالعة فى الكتب الصحيحة ، حتى تتربى عند الطالب ملكة من كثرة التكرار ، وتعود النطق الصحيح ، تغنيه عن قواعد النحو وتطبيقها إذا قرأ ، وإذا كتب . وعلى الرغم من جمال هذا المنحه ، واحترام هذا الرأى ، فإن الشطر الأول منه باطل ، والشطر الثانى نظرى ؛ وقد كفانا الاستدلال على بطلان الشطر الأول ، أبو عثمان الجاحظ ، إذ يقول فى كتابه « الحيوان » : « قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم النحو الى مايحتاج إليه ، حتى يتعلم ما لايحتاج إليه . قال أبو شمر إذا كان لايتوصل الى ما يحتاج إليه ، إلا بما لا يحتاج إليه ، فقد صار ما لا يحتاج إليه ، يحتاج إليه » . ا هـ

فأما أن الشطر الثانى نظرى ، فذلك ما يكرره الواقع المحس ، إذ لو كانت كثرة المطالعة فى الكتب الصحيحة كافية فى تقويم اللسان ، لكان الأزهر وفروعه ، كدار العلوم ، ومدارس المعلمين الأولية ، أغنى المعاهد عن دراسة النحو ، والتعمق فيه ، لأن طالب هذه المعاهد لا يدخلها ، إلا وقد حفظ القرآن الكريم ، حفظا مجودا ؛ وأثر القرآن فى إصلاح اللسان ، أبين من أن يشرح ؛ فإذا دخلها كان هجيراه المطالعة فى كتب تلتقى كلها فى صحة التراكيب ، وسلامتها من الخطأ العربى ، وإن اختلفت أساليبها ، واضطرب حظها من الفصاحة والبلاغة . وجميع ما يدرس فى هذه المعاهد من غير العلوم الشرعية واللسانية ، قد روعى فى كتبه وفى دراسته تلقينا وتلقيا ، التعريب الى أرقى حد مستطاع . ومع كل أولئك ، فان أحدا لا يستطيع أن يقول : إن الأزهرى ومن فى حكمه فى غنية عن دراسة النحو ، أو عن التعمق فيها ؛ ليس لمكانه من القيام على الشريعة واللغة فحسب ، بل لحاجته إليه إذا خطب ، وإذا كتب ، وإذا قرأ أيضا ؛ ومنكر ذلك جاحد للمشاهدات .

وإذا كان هذا حال الأزهر وما فى حكمه ، فما ظنك بالمدارس المدنية ، والحال فيها جد مختلفة

عن حال الأزهر ؟ فالطالب يدخلها خلوا من المعلومات ، إلا قليلا من مبادئ القراءة والحساب ؛ ودروس اللغة العربية فيها محـدودة ؛ ودروس الدين تعطى على سبيل البركة ! ولغـة مدرسى العلوم الأخرى لا هى عربية ، ولا هى سريانية ؛ أما مدرسو اللغات الغربية ، فالويل للطالب الذى ينطق عندهم بغير لغة الدرس ؛ قد يتنزل دارس اللغة العربية ، فيخاطب طلبته بالعامية ، ويناقشهم بالعامية ، فأما دارس اللغة الغربية فلا يتساهل ، ولا يتنزل .

زارنى فى إحـدى مدارس الأوقاف الملـكية ، المغفور له صالح مجـدى باشا المستشار ؛ فسألنى عن حال اللغة العربية والدين فى المدرسة ، فلم أحمدها ، وعللت ذلك : بأن اللغة تزاحمها اللغات الأجنبية ، والعلوم التى لا يلتزم مدرسوها النطق الصحيح ؛ وبأن الدين يدرس إضافيا . فأجابنى - أغـدق الله عليه فيوض رحمته - بقوله : لا - يا أستاذ - ليس ما ذكرت هو السبب فى ضعف اللغة والدين ، وإنما سببه ضعف الروح المعنوى فى نفوس مدرسى اللغة والدين ؛ ولو أخلص المـدرس للغته ودينه ، كما يخلص المبشر الأجنبى ، لوجـد السبيل الى تقويتهما وغرسهما فى النفوس ممهداً ميسورا . إن الرغبة أساس الانتفاع العلمى ؛ وعلى حسن حيلة المدرس تتوقف وسائل الرغبة ؛ ولو أننى كنت مـدرسا مـكانك ، لالتزمت الأسلوب الصحيح ، ولقصرت التمثيل فى دروس اللغة والدين والتاريخ وما الى ذلك ، على القرآن الـكريم والحديث الشريف ، ولظفرت بتوجيه التلاميذ توجيها عربيا دينيا من حيث لا يشعرون ، من غير استظهار بمنهج ، ولا استعانة بقانون . فلم أحر - والله - جوابا ؛ ولا وقفت موقفا كنت فيه أضعف من ذلك الموقف !

بيد أنه مما لا يرتاب فيه ، أن التعليم أصبح آليا بحتا ، وأن الرغبة أصبحت تابعة للإيجاب والإلزام ، أو بعبارة أصح : قامت رهبة القانون فيه ، مقام الرغبة فى التكمل النفسى ؛ ورانت ضرورات الحياة وقسوتها وتـكاليفها على قلوب المدرسين ، فقامت حائلا صفيقا دون الإخلاص للمهنة ، الذى هو سبيل الافتنـان فى العرض ، والاحتيـال فى التلقين ، والتفانى فى الوصول الى تربية الملـكات الـكفيلة بالوصول الى الغايات المبتغاة من العـلم والتعليم ؛ فـكل تيسير يشترع فى كل ما أوجبه القانون ، مؤدٍّ - بلا جدال - الى التحلل والتخفف من بعض العبء حسب ؛ وليس معناه فى نظر طالب اليوم ومدرس اليوم ، تحويل باب آلىّ من أبواب العلم ، الى نحو عملى ، قد يكون أعسر البابين ، وأشق العملين . فلتبق الواجبات - إذاً - والرسوم ، الى أن تخلص القلوب ، وترقى الفهوم ؟

كلية اللغة العربية — عبد الجواد رمضان

دراسات اجتماعية منوعة

النقود وسيلة المبادلة

الاسلام دين جامع لكل المقومات الاجتماعية ؛ ومن أهم تلك المقومات انتظام الشئون المالية ؛ وفى الفقه أبواب كثيرة تبحث فى الثروة العامة وطرق توزيعها بين الأفراد ، وجبايتها لمصلحة الدولة ؛ فوإن كان كل ذلك لا يتوقف على التبسط فى معرفة تاريخ التعامل بالنقد وبالأوراق المالية ؛ فان الالمام بحركة النقد ، وخاصة فى هذا العهد ، مما يحتاج اليه المشتغل بالفقه الاسلامى حتى لا يكون أجنبيا عن حركات التعامل الاقتصادية . وللاسلام ناحية لا يجوز إغفالها من التعاون ، وهذا لا يمكن معالجته إلا بدراسة ما يتصل به من قريب وبعيد من الشئون .

لهذا كله نرى أن البحوث الاقتصادية ليست ببعيدة الاتصال بالاسلام ، بل هى من أخص ما تجب العناية به ، ولنتكلم اليوم فى النقود :

كان الناس فى بدء حياتهم يعيشون على ما تنتجه أرضهم ، أو يستبدلون محصولات الآخرين بمحصولاتهم للحصول على ما ينقصهم من الحاجات .

ولما نما عددهم ، وظهرت لهم صعوبة المقايضة وتعقدها ، اضطروا الى اختيار شىء ينسبون اليه قيم السلع المختلفة ، واتفقوا على أكثر الأشياء بروزا فى مجتمعهم التجارى ،فاختاروا الأرز فى اليابان ، والشاى فى وسط آسيا ، وكتل الملح فى أفريقيا الوسطى ، والفرو فى الشمال من أوربا . وأخيرا اهتدوا الى المعادن النفيسة كالذهب والفضة والنحاس ، واستعملوها كوسيلة للمبادلة لما تمتاز به من صفات كيماوية وطبيعية جعلت لها التفضيل على سائر السلع .

فالفضة والذهب غير قابلين للتلف ولا الصدأ ، ويسهل حملهما مع كبر قيمتهما بالنسبة لوزنهما ، فان متوسط ما يستطيع الانسان أن يحمله فوق ظهره هو ٦٥ رطلا ، وإن ٦٥ رطلا من الفضة تساوى ٢٢٠ جنيها ، ومن الذهب ٧٠٠٠ جنيه . ومن مزاياها دوامها لمدد غير محدودة ، فلا تختلف قيمتهما من وقت لآخر . وعلاوة على ذلك فانهما لا يوجدان فى الطبيعة بالكثرة التى تغير من قيمتهما .

كان الناس يستعملون ذينك المعدنين فى معاملاتهم فى العصور الأولى فى شكل سبائك بدون دمغها ، وكان ذلك يترك لهم فرصة للسرقة والتلاعب فى وزنها ، فضلا عما كان يلاقيه

التجار فى كل صفقة من العنت الناتج عن وزن النسب المتفق عليها من المعدن ؛ وكلما زادت لديهم الصفقات واختلفت ، اتضح لهم صعوبة تلك الطريقة وعقمها .

ولما أصبح استخدام المعادن كوسيلة لتسهيل المبادلات عادة بين الناس ، اتفقوا على تحديد وزن عام من المعدن لكل نوع من السلع ضمنته الهيئة الحاكمة ، فاتخذت بذلك المسألة النقدية صبغة رسمية ، وقسمت السبائك الى قطع صغيرة ، وأصبحت تعد بعد أن كانت توزن ؛ ثم تولت الحكومات المتمدنة دمغها وضربها عملة ، وجعلتها مستديرة ولها شرشرة ، وطبعت على أحد وجهيها رمزا للمملكة ، وعلى الوجه الآخر قيمتها الاسمية المحددة لها . ويقال إن أول من ضرب النقود ملك ليديا فى آسيا الصغرى حوالى سنة ٧٠٠ أو سنة ٦٥٠ قبل الميلاد . وتوجد عينة من نقوده فى المتحف البريطانى ، وهى مصنوعة من مخلوط من الذهب والفضة يسميه اليونان اليكترون ، وهى فى شكل البيضة ، وعليها علامات .

واستمر اهتمام أولى الأمر بمسألة النقد ، واحتفظت الحكومات لنفسها بحق ضربه ، واعتبرت قيام الأشخاص بذلك العمل جريمة تعاقب عليها أشد العقاب . ويرجع تاريخ هذا الاحتكار الى رغبة الأمراء والملوك فى العصور الأولى فى الاستئثار بالربح الناتج من سك النقود ، ولحرص الحكومات المتمدنة فى العصور الحالية على السهر لضمان وحدة مقياس المبادلة .

والعملة لا تضرب من المعدن وهو نقى ، لأنه وهو فى هذه الحالة لا يتحمل كثرة الاستعمال التى يقتضيها تداول النقود ، لذلك تضاف اليه نسبة مئوية من النحاس تحددها الحكومة لتكسبه الصلابة اللازمة .

وتقدمت المدنية ، وتطورت الصناعة والزراعة ، وتنوعت المنتجات ، واتسع نطاق المعاملات التجارية ، وتعددت الحاجات ، واختلفت قيم السلع ، ولزم الحال أن يشمل نظام النقد عددا كافيا من قيم مختلفة من العملة تنفق ومطالب الحياة اليومية ، حتى إنه أصبح من المتعذر قصر العملة على الذهب أو الفضة ، لأن ذلك يقتضى أن تصبح بعض القطع صغيرة ورقيقة جدا لدرجة تجعل من الصعب تداولها بين الناس ؛ لذلك استعملوا نقودا مساعدة من معادن أخرى ، كالنيكل والبرونز ، لتقوم بحاجة المبادلات الرخيصة .

وازدادت أهمية التجارة الدولية ، وهى تقوم على واردات وصادرات من وإلى الخارج ، ولا تقبل الدول فى الدفع ثمنا لبضائعها غير الذهب أو الفضة ، لذلك احتفظت الحكومات والبيوت المالية بكميات كبيرة من المعدنين لاستخدامها فى سداد ديونها الناشئة عن التجارة والصناعة . ولما كانت النقود المساعدة من النيكل والبرونز لا تكفى كل حاجات المبادلة الداخلية ، ولا يرغب الناس فى حمل كمية كبيرة منها لثقلها ، استعملت الحكومات فى التعامل الاقليمى نقودا ورقية منحتها صفتها النقدية بقوة القانون والاتفاق العام .

والنقود الورقية ليست جديدة فى التداول ، فان ماركوبولو الرحالة الأوربى الذى اشتهر

فى القرن الرابع عشر، جاء بكمية منها من الصين، ولكن لايعرف بالتدقيق من الذى اخترعها.

والنقود الورقية لا تستعمل إلا فى البلد الذى يخضع للقانون الذى أوجدها وحدد قيمتها، على عكس النقود المعدنية فان قيمتها واحدة فى كل مكان، وبذلك يقبل تداولها فى كل البلاد المتمدنة. هذا، ومن جهة أخرى فان النقود الورقية ليست لها قيمة تجارية فى ذاتها، لأنها تقوم على إدارة المشرع، ولذلك فان القانون الذى خلقها يمكنه أن يبطلها، وإذا أبطلت فلا يبقى فى يد صاحبها إلا قطعة ورق لا قيمة لها، على عكس النقود المعدنية، فان لها قيمة ذاتية تجارية، فاذا أبطل القانون اعتبار المعدن كنقد، فان مالك العملة لا يفقد كل شىء، بل تبقى فى يده قيمة النقد المعدنية.

ولما كان الغرض من النقود هو تبسيط مسائل المبادلة، فان الناس دائما يفضلون أسهل وسيلة لإدراك هذه الغاية، لذلك أقبلوا على النقود الورقية لأنها أخف وأيسر فى الحمل من النقود المعدنية. ثم تطور نظام التعامل بالورق النقدى واخترعت الشيكات، وهى عبارة عن أوامر بالدفع يأمر بها صاحب الشيك البنك، ويسمى المسحوب عليه، بأن يدفع الى وتحت إذن أى شخص، وهو المسحوب له، مبلغا من المال هو قيمة الشيك. وكان ذلك نتيجة لانتشار نظام البنوك واحتفاظ رجال الأعمال والمنتجين وكبار التجار والملاك برصد كبيرة من أموالهم فى البنوك. فاذا اشترى أحدهم من الآخر بضاعة فبدل أن ينقده ثمنا لها، وهذا يقتضى ضياع وقت ومصاريف فى عد النقود وفرزها ونقلها وتسليمها، فان المدين (المشترى) يعطى الدائن (البائع) شيكا على البنك تحت إذنه، أى يترك له حرية تحويل الشيك لمن يريد، فانه بذلك يستطيع تسديد دين عليه لآخر، وهذا يمكنه تحويله لدائن له، وهكذا ينتقل الشيك من يد إلى أخرى، وهو يمثل مبلغا من المال مرقوما على وجهه ومحفوظا فى البنك، فاذا انتهى الأمر الى دائن أوبائع وأراد سحب قيمته، فانه يرسله الى البنك الذى يقوم فوراً بالسداد. وانتشرت طريقة التعامل بالشيكات فى البلاد التجارية، وخصوصا انجلترا، على عكس ما يتمنى الفرد ويسعى اليه من الإكثار من حيازة النقود لتتسع ثروته، فان الأمة فى مجموعها لا ينبغى لها أن تزيد كمية النقود عن القدر اللازم لحاجة التبادل التجارى الذى يتوقف لديها على مقدرتها الإنتاجية وثروتها الزراعية والمعدنية، لأنها لو زادت عن هذا القدر فإن قيمتها تنخفض، وترتفع فى مقابل ذلك قيم السلع المعروضة للبيع بالنسبة لها، وبذلك ترتفع أسعارها. ويغلب حدوث هذه الظاهرة فى زمن الحرب حيث تكون الحكومات فى حاجة الى النقود لتدفع بها أثمان الأدوات والمهام الحربية، فتحتفظ بما لديها من المعادن النفيسة لشراء الذخائر والأسلحة من الدول الأجنبية التى لاتقبل ثمنا لهذه الأشياء غير الذهب أوالفضة، فتلجأ الى وسيلة إصدار الأوراق المالية دون أن يقابلها رصيد من الذهب، وإنما

تكتسب صفة النقد بقوة القانون ، وتستعملها الحكومة فى دفع المهايا والمرتبات وسداد ديونها الداخلية ، وتفرض التعامل بها فى المبادلات المحلية . وكلما استنفدت الحكومة جزءاً من المعادن النفيسة فى تجارتها وديونها الخارجية وأرادت سحب ما يوجد فى السوق الداخلية من نقود معدنية ، فانها تزيد كمية هذه الأوراق النقدية ؛ وبذلك ترتفع الأسعار ، ويقال عندئذ إن النقود فى حالة تضخم ؛ وهذا إذا استمر فانه يؤثر فى حالة البلد الاقتصادية ، ويوصم سمعتها المالية بالاختلال ، فتسعى رءوس الأموال الأجنبية التى تستثمر فيه إلى الفرار ، ورءوس الأموال الوطنية الى الانكماش ، وبذلك تضعف مقدرته الإنتاجية ، ويكون مهددا بالفقر والاضمحلال ، كما كانت حالة ألمانيا بعد الحرب العظمى .

ولقد حاولت روسيا البلشفية فى ذلك الوقت أن تقضى على النقد ، وذلك بالمبالغة فى إصدار النقود الورقية حتى تفقد النقود المعدنية قيمتها ، وتضيع ثقة الناس بها ، ويعتادوا التعامل بالورق ، فاذا تم لهم ذلك يستبدلون التذاكر النسبية ذات الكوبونات بالنقود الورقية ، وكل فرد يأخذ تذكرة دورية بها كوبونات بمقدار ما تحدده له الدولة من اللبن واللحم والخبز والسكر والوقود والملابس والأساس والكتب والخمور والملاهى وغيرها من الحاجات اليومية ، ويمكنه استبدال هذه الكوبونات بما تساويه فى المخازن العمومية ؛ وحددت الكمية من كل صنف من هذه الأشياء تبعا لقوة الفرد العملية ومقدرته الإنتاجية وحاجته المعيشية . ولكن المخازن العمومية لم يكن بها من البضائع ما يكفى هذه الطلبات ، ولذلك كان الناس يفتكون من نص القانون ويتعاملون سرا بنظام البيع والشراء القديم ؛ فكانوا يفضلون أن يبيعوا أو يشتروا سلعهم بالنقد ، ولذلك استمرت للنقود فى تلك البيئة قيمة تبادلية ؛ فلما أعلنت الحرب الحالية بدءوا يستعملون تلك التذاكر على نطاق أوسع فى ألمانيا وروسيا .

وكانت قد جرت الحكومات على سنة تقضى بالاحتفاظ برصيد كبير من الذهب تجعله الدعامة التى يرتكز عليها نقدها ، وكان أكثر ما تجمع من هذا الذهب لدى الدول الرأسمالية ، لذلك قامت الدول حديثة العهد بالصناعة تحرم تصدير النقود ، وتسعى من جهة أخرى لتشجيع صادراتها ، وتخفيض وارداتها ، لتجذب اليها مقدارا من هذا الذهب ، وأصبحت كل دولة وهى تضن بذهبها ونقودها تتبادل حاصلات ومنتجات فى مقابل حاصلات ومنتجات أخرى ، وبذلك عادوا الى طريقة المقايضة ، ولكن على أساس التقدير النقدى ؛ وحدد ذلك كمية التجارة الدولية ، واجتهدت كل دولة أن تكتفى نفسها بوسائلها الخاصة ، وفرضت القيود الجمركية الشديدة ، وغلبت على المبادلات التجارية الروح الحربية ، وكانت النتيجة تحرج العلاقات التجارية بين الدول ، كما نرى ذلك فى السنين الأخيرة ؟

ابراهيم زكى

أساليب التربيـة والمنطق

فى دعوة ابراهيم عليه السلام

كان ابراهيم عليه السلام ، أوفر الأنبياء حظاً من عناية القرآن الكريم ، والتحدث عنه ، فى غير ما موضع ؛ وقـد يرجع ذلك الى أنه أبو الأنبياء ، وأنه صادفه من المحن والشدائد ، ما كان غريبا فى التاريخ ، وعجبا فى الحـوادث ، وأن حياته كانت مزيجا من حل وترحال ، واضطراب نفسى ، وقلق وجدانى ؛ ولم يكن ذلك الاضطراب ، وهذا القلق ، فيما يختص بسير الدعوة فحسب ، ولكنه كان مزيجا من أساليب الدعوة ، ومن هؤلاء الذين كان يوجه إليهم وحى الله ، وكلمة السماء ، ونداء الحق .

وفى الحديث عنه غذاء خصب ، لمن يتطلب أنماطاً من أساليب التربية الحديثة ، وفنونا من جدل المنطق ، وعراك الفلسفة ؛ فإذا كان أساتذة التربية اليوم يدّعون أنهم يدرسون شيئا جديدا ، أو يتقدمون الى الناس بطرق لا عهد لهم بها من قبل ، فإن القرآن الكريم يحدثنا أن ذلك لم يكن جديدا على الإنسانية ، ولا حدثا من أحداث القرن العشرين !

ظهر ابراهيم عليه السـلام فى « بابل » ، حيث الوثنية ضاربة أطنابها ، والجهل مخيم على العقول ، فلا يعرفون عن الإله إلا أنه هـذا الحجر الذى ينحتونه فيعبدونه ، ولا يعرفون من العبادة إلا أنها تلك الطرق والرسوم التى يقومون بها بين يدى هذه الأصنام ، كل ذلك وإبراهيم يفكر فى نفسه ، أن ذلك ضلال قديم ، وعبث بعقول البشرية ، وأنه لابد من الثورة عليه والعمل على هدمه ، الى تدبير خطة حكيمة ، ورسم طريقة مثلى !

بدأ بأبيه ، ولـكن أى سبيل يسلك الى إقناعه ، وأى وسيلة يتخذها الى هدايته ؟ لجأ الى الموعظة الحسنة التى لا تجافى أدب النبوة :

« يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكونَ للشيطان وليا » . فوقع قوله أسوأ موقع من قلب أبيه ، ورد عليه ردا تتمثل فيه عزة الأبوة ، وسلطان العقيدة :

« أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » . فلم يسع ابراهيم إزاء هـذا الرفض المؤيس إلا أن يستثير كل ما لديه من عطف الابن البار ، على أبيه المتمادى فى الضلال ، فلم يزد على أن قال له : « سلام عليك ، سأستغفر لك ربى إنه كان بى حَفِيًّا » .

هى فى الواقع دعوة جريئة من ابراهيم عليه السلام . يحارب أباه فى رزقه ، وقد كان ينحت الأصنام ليبيعها ، ثم هو مع ذلك يحاربه فى عقيدته ، وهل يكفيه أن دعا بهذه الدعوة فى عقر بيته ، وهو مكلف بأن يدعو إليها جميع قومه ؟ فماذا فعل ؟ خرج الى قومه ، وصادف أن كان ذلك اليوم عيداً لهم ، يتغلغلون فى باطن الصحراء ، ويغيبون عن صخب المدينة وضوضائها ، قالوا له : تخرج معنا الى المعَيَّد يا ابراهيم ؟ « فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين » . ولم يكن به سقم ، ولكنها وسيلة لعمل خطير انتوى أن يقوم به ليدلل على فساد الوثنية بدليل محسوس . فقال فى نفسه : أحطم هذه الأصنام ، فإذا ما رجعوا إليها وجدوها جذاذاً إلا كبيرا لهم ، لعلهم بذلك يسألون أنفسهم : كيف ساغ لهم أن يعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يرد عن نفسه كيدا ! ! فلما رجعوا ووجدوا ما وجدوا ، اشتدت حيرتهم ، واستولى عليهم الغضب ، وأخذوا يتساءلون : من ترى هذا الذى يجرؤ على أن ينالنا فى عقيدتنا ، ويتهجم على آلهتنا ، ويعتدى على معبوداتنا ؟ « قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ! قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون » .

ما أحسن الحجة تقرع الجمود ، والبرهان يصدم الضلالة ، والمنطق ينهافت أمامه الخطل !! ذلك هو الغَلب من غير جيش جرار ، أو سيف بتار : « بل نقذف بالحق على الباطل فيَدْمَغُه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » . شعروا بالهزيمة ، وأحسوا الضعف « فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نُكِسوا على رءوسهم » ، ولكنهم لابد أن يتلكئوا فى المنطق ، ويرتبكوا فى الجدل ، فقالوا لإبراهيم : « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » ، وما دروا أنهم بذلك يناقضون أنفسهم ، ويقيمون الدليل على ضعف حجتهم ، وحرج موقفهم ! « قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أُفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون » .

هنا موقفان عجيبان : فابراهيم يتسلح بالمنطق والبرهان ، وهم يتسلحون بالتقليد الأعمى ، يكاد كل منهم يذعن ، وقد وضح الصبح لذى عينين ، إلا أن هنالك شيئا آخر ، هو التقليد الموروث ، وهو لا يخضع لمنطق ، ولا ينزل على حكم برهان ...

أخذوا يتهامسون : هل هنالك من مخلص؟ فلم يجدوا إلا أن قالوا « وجدنا آباءنا لها عابدين » . وكأن الوراثة دين آخر. ثم أدركهم ما يدرك المبطل المغرور : « قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » . فجمعوا الحطب الجزل ، وأججوه حتى صار كالجحيم ، وألقوا بابراهيم بين أحضان تلك النار، فلما خبا أوارها ، وسكن شرارها ، وجدوه حيا ، لم ينله أذى ، وهى

آية تكفى أن تجعل أعناقهم لها خاضعين ، ولـكن أدرك كبيرهم النمروذ ، داء الجبابرة الأولين ، فأمر بالقبض على ابراهيم ، وأخذ يحاجه فى ربه أن آتاه الله الملك « إذ قال ابراهيم ربىَ الذى يحيي ويميت » فأجابه النمروذ : « أنا أحيي وأميت ، قال ابراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبُهِت الذى كفر » .

حجة بالغة ، ولـكن أين القلب الذى يستضىء بها ، ويرجع عن غيه بتأثيرها ؟ وحينئذ رأى من حصافة العقل ، ورجاحة التفكير ، أن يتنزل الى مستواهم ، ويسير معهم ، على الطريقة التى ينسبونها « لسقراط » طريقة خلو الذهن ، وتجاهل العارف :

« فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أَفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين . وحاجه قومه ، قال أتحاجونى فى الله وقد هـداني ، ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » .

هذا هو ابراهيم شيخ الأنبياء ، وهذا هو الرجل الذى اعتمد على المنطق والفطرة السليمة ، والذى استعمل فى دعوته أساليب التربية الحديثة ، من الاستقراء ، والاستنباط ، والتمثيل بالبدهى المحسوس ، لتثبت دعواه ، من طريقى العلم والعمل ، فيطمئن قلب من يدعوه ، إن كان الله يريد أن يهديه للإيمان . وهـذا هو إبراهيم الذى بلغ من عظمته أن تنازعته الأمم قديما وحديثا ، فرد الله عليهم ذلك كله : « ما كان ابراهيم يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولـكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » ؟

ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

التشريع الاسلامى وأثره فى الأمم

ليس بين الشرائع الوضعية منذ تواضع الناس عليها قانون يكفل بقاءه وديمومته بين الناس واجب التطبيق مطرد النفاذ ، وذلك بدهى الثبوت . فإن قانونا تمس إليه حاجة فريق من البشر، وتستتبعه حالات معينة حفزت إليها ملابسات مجتمع بعينه ، وقضت بها ضرورة مؤقتة ، لا يمكن أن يكون أبدى البقاء ولا سرمدي الدوام ، فلكل أمة بل لكل جيل تقاليده ومراسيمه ، وعلى قدر تلك التقاليد يكون سير تلك الأمة ، وعلى هديها يجرى سننها وتطبق أحكامها فيما يتصل بها من معاملات ، سواء أكانت تلك المعاملات بين العباد بعضهم مع بعض ، أو بين العباد وخالقهم ، والقوانين أخلاق وعادات .

لكن التشريع الاسلامى دين خالد على وجه الزمن ، لا يتطرق إليه تعديل ولا تحول ، لأنه وضع مسايراً لمرافق الناس جميعا ، مرعيا فيه كل حالة تتصل بنظام الفرد والجماعة والأمة ، ويحكم نوعا من التعاون فى بناء هذا المجتمع ، يصل الحاضر بالماضى والمستقبل ، ويؤلف بين أجزاء هذا المجتمع ، ويجمع بين شتاته كل ما يتصل بالأخلاق وبالمعاملات العامة والنوعية والفردية ، فهو يقيم المجتمع كله على أسس صالحة ، ويقدر لكل حالة قوامها ولبوسها ، ويدعو الناس الى ممارسة الأعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإلى العقائد المعتنقة بالحجة القارعة والأدلة الدامغة .

فبينا تدعو الناس الشريعة المطهرة الى تذكيرهم بعالم الجزاء ، وأن هناك ميزانا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فلا يستغل الأقوياء ضعف الضعفاء ، فيتسلطوا عليهم ، يغصبونهم أموالهم ، ويسلبونهم أمنهم وطمانينتهم ، ويأخذون عليهم سبيل الاستمتاع بما أحل الله لهم من طيبات :

أخرج مسلم والترمذى فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أرأيت أن رجلا جاء الىّ يأخذ مالى ؟ فقال : لاتعطه ، فقال : أرأيت لو أنه قاتلنى ؟ قال : قاتله ، فقال : أرأيت لو أنه قتلنى ؟ فقال : فأنت شهيد . قال : أرأيت لو أنى قتلته ؟ قال فهو فى النار .

بينما هى تدعو الناس الى هذا إذا بها تدعوهم الى التراحم والتآزر ، وقيام أواصر الاسلام ووشائج الدين بين المسلمين مقام روابط الأنساب والأرحام ، فلا يظلم بعضهم بعضا ، ولا يجور الكبير على حق الصغير :

أخرج الترمذى وأبو داود فى صحيحيهما « أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : أتدرون

من المفلس ؟ قالوا : يارسول الله المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه من الحقوق أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى نار جهنم »

وبينما توصى الناس برعاية أحكام المجتمع ، فتشرع لهم شرعة يتوارثونها خلفا عن سلف فى أحكام دنياهم ، إذا بها تدعوهم الى مراقبة الله ورعايته ، فإنهم قادمون على يوم لا ينفع فيه نسب ولا نشب ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

أوصت الشريعة الاسلامية فى دار الابتلاء برعاية حدود المعاملات ، تلك الحدود التى أقامها الشارع بين الناس اتقاء الطغيان والجور ، والطمع وسوء الخلق ، واعتداء الأقوياء على الضعفاء ، فشرع فيما شرع من المعاملات : باب البيع والسلم والاجارة والقراض والوقف والهبة والوصية والعارية .

ثم أبان أن للانسان شهوات جامحة ونزعات طامحة ، فحذره من التردى فى حفائر الرذيلة والسقوط فى مهوى العار والخزى ، فشرع اجتناب الميسر والربا والزنا والسرقة وقطع الطريق على الآمنين والخمر ومعاقرتها والقذف فى أعراض الناس والجناية على النفس وعلى ما دون النفس .

ثم ركز الأخلاق على أسس من الخير متينة ، وأصول من السعادة الأبدية حصينة ، فأفاض فى الغاية من الدعوة الاسلامية ، وبلغ الناس على ألسنة الرسل والأنبياء ما أسعد العقول السليمة ، وأوزع النفوس الكريمة بما يعمر هذا المجتمع ويشع فيه من رحمة وطمأنينة وعدالة شاملة .

لقد جمعت تلك الشريعة السمحة بين أحكام المعاش والمعاد ، فحفزت الناس الى طلب المعاش برفق وهوادة ، وبصرتهم بعاقبة ما يجنى الحريص من حرصه ، والطامع من طمعه ، والشحيح من شحه ، والباغى من بغيه ، ثم نصبت لهم الحدود والمعالم ، وقالت : « من يعمل سوءا يجز به » « ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه » ، ثم نوهت بجزاء المحسنين فى دار الجزاء والمثوبة ، فقال جل ثناؤه : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » .

فهل رأيت أبلغ قصدا ، ولا أقوم حجة ، ولا أهدى سبيلا ، من تلك النظريات العامة الخالدة التى بعثها الله على ألسنة رسله وأنبيائه مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ؟

عباس طه



تشهد جريدة المونيتور بأن الأصول الاسلامية تعتبر غاية فى السمو ، وأن الاسلام وهب المرأة حقوقا لا تتمتع بمثلها المرأة الفرنسية

بعد أن زال التعصب الأعمى الذى كان يحمل أهل الملل على بَهْت بعضهم أديان بعض (١) ، واستقام العقل على سمت النقد الحر النزيه ، عند النخبة المتعلمة من الأمم ، بدأ مفكرو الغرب يغيرون آراءهم القديمة فى الاسلام ورسوله وكتابه ، واعترفوا بأنهم ضُللوا فى الحكم عليه تضليلا معيبا ، حتى أن أحد هؤلاء النخبة وهو الكونت هنرى دوكاسترى مؤلف كتاب (دراسات فى الاسلام وتأثرات) أتى على عشرات من أقوال المؤرخين السابقين فى الاسلام ورسوله وكتابه ، تدل على مبلغ ما كان يستولى على أولئك المؤلفين من روح التعصب الذميم ، والحقد المتأجج فى الصدور .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

كان غير المسلمين كافة يعتقدون اعتقادا راسخا أن الاسلام دين بشرى صرف متنزل عن العقلية العربية ، وأنه قائم على المبادئ الجاهلية ، غرضه الأول الغزو وتدويخ البلاد (٢) للحصول على المغانم سداً لنهمة القائمين به ، وأنه لم يفد الانسانية بشىء غير نشر الذعر فى بقاع عظيمة من الأرض ، حطم عمرانها ، وأباد خضراءها ، وكان شرا عليها من كل شر أصابها ، وأن واجب الأمم التى لم تبل به أن تتألب على تخليص البشرية من ويلاته .

فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يكون الذين قالوا هذا القول هم الذين يبرئون الاسلام من جميع هذه التهم ، ويقررون علميا أنه أسمى مظهر للعاطفة الدينية ، وأن أصوله ومبادئه تعتبر مُثلا عليا للانسانية فى تمشيها نحو كمالها المنشود ، وأنه آخى بين العقل والدين ، ووفق بين العلم والايمان ، مما نقلنا كثيرا منه نقلا عن الأستاذ الكبير الكسندر دريبر المدرس بجامعة نيويورك فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) ، كما نقلنا مثل ذلك عن كبار الفلاسفة والمؤرخين : جيبون وكارلايل الانجليزيين ، وسديو ولامرتين وجوستاف لوبون ودروى

---

(١) يقال بهته يبهته بهتا وبهتانا : أى قذفه بالباطل وافترى عليه الكذب . وهو من باب قطع .

(٢) يقال دوخ البلاد وديخها : قهرها واستولى على أهلها .

الفرنسيين وغيرهم من أجناس أخرى ، فى تعداد أسمائهم تطويل لا موجب له . وقد شاع فضل الاسلام على الأمم التى أخذت به ، وعلى الانسانية بأسرها ، بما أحدثه من انقلابات خطيرة فى الاجتماع والعلم والسياسة والديانة ، حتى صارت الجرائد والمجلات على اختلاف لغاتها تردده ، وبعضها يكتب فيه البحوث الطوال حتى ما لا يصل الى المسلمين منها ، خدمة للعلم ، وتقويما للآراء فى أمر جلل كهذا ، اعتبر قرونا كثيرة على خلاف ماهو عليه فى الواقع .

من هذه البحوث التى تكتب فى أوروبا لأهلها لا لغرض آخر ، ما نشرته جريدة (المونيتور) الفرنسية . فذكرت القرآن وقالت عنه : إنه كتاب دينى على شاكلة التوراة ، واعترفت بأنه كتاب لدين من أكبر الأديان البشرية ، وقررت أن صدوره من بلاد العرب التى لا يعرف أهلها غير قيادة الإبل يعتبر آية عظيمة .

ثم أخذت تعرّف الأصول والمبادئ التى نشرها القرآن ؛ وكان مما قالته :

« القضاء والقدر على ما هو مقرر عنهما فى القرآن ، يقصد منهما وجوب الخضوع للمقررات الخالدة للعناية الإلهية . ولكننا إن تتبعنا الأصول الاسلامية على الأسلوب الحرفى يتبين لنا أنهما لا يعنيان مذهب الجبر فى هذا الدين . فالقول بتدخل الإرادة الإلهية فى جميع أعمال الانسان ليس إلا وهماً أريد به تشويه وجه هذه العقيدة الأولية (كذا) .

« أما الأصول الأدبية الواردة فى القرآن فكثيرة ، وتكشف عن سمو عقلى عظيم ، ولسنا نذكر إلا قليلا منها على سبيل المثال : حب الغير ، وعمل البر ، واحترام الذات ، والوفاء بالوعد ، والتسامح حيال أهل الكتاب أى اليهود والنصارى .

« وقد أوجد الاسلام إصلاحا عظيما فى حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية . ومما يجب التنويه به والإشادة بذكره ، أن الحقوق الشرعية التى منحها الاسلام للمرأة تفوق كثيراً الحقوق الممنوحة للمرأة الفرنسية .

« أما تعدد الزوجات الذى أصبح اليوم أخف وطأة مما كان عليه ، ولا يزال يأخذ فى النقص لدى المسلمين ، فيجب علينا أن نلفت الأنظار الى شرط قرآنى خاص بالزواج يجهله الناس على وجه عام ، وهو يسمح لممثل المرأة أن يشرط على الزوج عدم الزواج بأخرى ، فإذا لم يحترم هذا الشرط كانت امرأته فى حل من أمرها »

(مجلة الأزهر) الفرق بين لهجة المؤلفين والكتّاب السابقين ، وبين لهجة المؤلفين والكتاب المعاصرين فى الاسلام ، عظيم كما يراه القارئون . والفضل فى ذلك لسقوط دولة الأضاليل التى كان يروجها متحمسة الدينيين فى القرون الغابرة ؛ حتى إن من هذه الكتابات الدفاعية عن الاسلام ما لا يستطيع أن يزيد عليه المسلمون أنفسهم شيئا . وكثير مما نستشهد به الآن من سمو الأصول الاسلامية وآثارها العلمية والعمرانية فى العالم ، قد استفدناه من

بحوث كبار مؤرخيهم وفلاسفتهم . فقد درسوا تاريخ العلوم والصنائع والفنون ، ووقفوا على أدوار نشوئها وتطوراتها ، ووجدوا أن كثيرا منها قد اكتشفه المسلمون أو هذبوه وجعلوه صالحا لأن يستفاد منه فى تحسين وسائل الحياة ، فنبهوا الى أن مصدر ذلك المسلمون إبان نهضتهم الأولى ، فتألف من ذلك مذخور من المجد ليس لأمة مثله فى نظر المنصفين ، بل قالوا لولا أن المسلمين تولوا حفظ علوم الأولين بعد أن ترجموها الى لغتهم ، وتولوها بالترقية والتهذيب ، وسندوها بعلوم جديدة من مكتشفاتهم ، لبادت تلك المعارف القيمة ، ووقع العالم فى ظلام بهيم ، لأن مصادر تلك المعارف كانت مختزنة فى دور كتب عتيقة ، وفى حالة إهمال مطلق ، ترتع فيها الحشرات والهوام ، وتعبث بها الأيدى بأخذ صحفها للاستعمالات المنزلية ، كأنها أوراق مهملة لا تصلح إلا للحريق .

فمجد المسلمين من هذه الناحية لا يحاكيه مجد لأمة من أمم الأرض ، وقد اعترف بذلك مؤرخو الأمم غير الاسلامية كما قدمنا . وها نحن من هذه المقالة فى جريدة يومية إزاء تبرئة الاسلام من تهم كانت ملصقة بالاسلام ، ومعتبرة عنصرا من عناصر كيانه الأدبى ، كمسألتى القضاء والقدر ، والمرأة والأصول القرآنية . فقد كان الكتاب السابقون يقولون إن الأصول القرآنية ساذجة لا تصلح إلا للشعوب المنحطة ، وإنها تدعو الى التعصب الذميم وسفك الدماء البريئة ، وتحرض على النهب والسلب . وكتاب اليوم يقولون كما تقول جريدة المونيتور إنها أصول غاية فى السمو ، والفرق لا يقدر بين غاية السمو وبين السذاجة والدعوة الى الجرائم .

وكانوا يقررون أن الاسلام يقول بانحطاط المرأة ، وبأنها أسيرة فى يد الرجل لتجردها عن الحقوق ، حتى بالغ بعضهم فقالوا إن الاسلام يعلّم ذويه بأن المرأة لا روح لها ، وأنها لا ترث الحياة الآخرة . وقد أثبت العلم أنهم هم الذين كانوا يعاملون النساء هذه المعاملة ، فكانوا يحرمون عليهن الضحك والكلام ، ويضعون على أفواههن الأقفال . واليوم يقول كتابهم إن الحقوق المدنية التى منحها الاسلام للمرأة تفوق ما تتمتع به المرأة الفرنسية . ولا يخفاك أن المرأة الفرنسية فى مقدمة نساء الأرض حرية وثقافة . وخشية أن يتوهم قارئ أننا نبالغ فى القول ، ننقل له النص الفرنسى لهذه العبارة ، وهى :

Il est à remarquer que la femme musulmane a, de nos jours, une capacité juridique beaucoup plus dévelppeé que celle attribueé à la femme francaise ·

ليست هذه مبالغة من الكاتب النبيل ولكنها الحق الصراح ، وصدوره من رجال الصحف الكبرى فى أرق الأمم مدنية ، أمر جلل يوجب التأمل والتفكير .

ننظر الى مسألة القضاء والقدر فى الاسلام ، والى تبرئة محرر جريدة المونيتور له من تهمة القول بالجبر ، فقد اعتمد فى دفاعه على أن القول بتدخل العناية الإلهية فى كل صغيرة من

صغريات الأعمال الانسانية من الأوهام التي قصد بها تشويه حقيقة هـذه العقيدة الأولية ، وكان أولى به أنه يقول : إنه مع اعتقـاد المسلمين أنه لا يقع شيء في السموات والأرض إلا بإرادة الله وتقديره ، فإنهم لم يقولوا بمـذهب الجبر ، إلا طائفة صغيرة منهم ، وذلك لأنه مع هـذه العقيدة أمرهم دينهم بالعمل وترك الاحتجاج بالقضاء والقدر . وقـد عاب القرآن على المشركين الذين قالوا : « لو شاء الله ما أشركنا » ، وعد ذلك جهلا منهم .

فليس بين قـوله تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » وبين قـوله : « وقل اعمـلوا فسيرى الله عملـكم ورسوله » ، تناقض قط . فإذا لاح لك أن تعمل عملا فما الذي يعرّفك بأن الله يشاء أو لم يشأ أن تعمله ؟ إنك في حالة الهم بعمل شيء تتيقظ فيك بواعث من ضروب شتى تحرضك على أدائه ، ولا تجد في نفسك ميلا الى البحث : هل يشاء الله أن تفعله أم لم يشأ أن تفعله . وإذا رأيت أنك غير مريد لعمله ، لبثت حيث أنت ولم تحرك في سبيل محاولته ساكنا .

على هذه الحال جرى الناس في حياتهم الشخصية والاجتماعية ويجرون ، لا فرق بين الذين يقولون منهم بالجبر ومن لا يقولون به ، ولم نر إنسانا أوى الى كسر داره ، وترك كل عمل اعتمادا على أنه مجبر على ما يفعل ، وكان أثر ذلك عليه أن قَصُر عن مساواة غيره باسم الدين ، وإن وقع مثل هذا الأمر لأحد وسئل أي آية من الـكتاب تأمرك أن تفعل بنفسك هذا الذي تفعله ؟ لم يحر جوابا . فالقرآن الـكريم كله حض على العمل وطلب الرزق ، والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، وليس فيه آية واحدة تحض على الجمود والتراخي .

وإنما كان يصح أن يكون هنالك تناقض إن كان أمر الـكتاب شخصا بعينه أن يعمل عملا على حين أن الله قد قضى عليه بأن لا يعمله ، ولـكن الـكتاب يخاطب العالم كله جملة ، وفيهم من وفقه للعمل ومن قضى عليه بالنكول عنه . فإن كان الـكتاب ينص على أن لا إرادة مع إرادة الخالق ، فإنما هو يقرر حقيقة أولية ، وهي أنه لا يقع في ملـكه إلا ما قدره وقضاه ، حتى سقوط ورقة جافة على الغبراء ، أو تحرك ذرة من ذرات الهباء .

ومن عجب أن كثيرا ممن كتبوا من الأوربيين عن المسلمين في العهد الأخير ، عزوا تقصير أكثر الشعوب الاسلامية عن اللحاق بالأمم الراقية الى عقيدتهم في القضاء والقدر . فإن صح ما قالوه فبم يعللون سرعة نهوض المسلمين في صدر الاسـلام ، وما بذلوه من الجهود الجبارة في إقامة دولتهم ، ومـكافحة أعدائهم ، وتعمير بلادهم ، ورفع منار العلم ، ونشر مدنية فاضلة يتحدث عنهما المؤرخون ، ويجدون فيهما كل يوم جديدا يعجبون به ويستنزلون عجب الناس منه ؟ بم يعللون هذه الحركات السريعة ، والأعمال المتواصلة ، والمجازفات التي تـكاد لا تعقل ، حتى قيل إن كريستوف كولومب مكتشف أمريكا وجد للمسلمين آثاراً في الدنيا الجديدة ؟

محمد فريد وجدي

جمعية منع المسكرات

تحت رعاية حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون

تقرير من المؤتمر الدولى الثانى والعشرين المنعقد فى فنلندا سنة ١٩٣٩

عقد مؤتمر دولى فى عاصمة هولاندة لمنع المسكرات شهده ٦٨٩ عضوا يمثلون ثلاثا وعشرين دولة ، وكان مندوب مصر فى هذا المؤتمر الأستاذ الجليل أحمد غلوش الذى قام بمهمته خير قيام استوجب إعجاب المؤتمرين وتقديرهم .

فى اليوم الثالث للمؤتمر دعى مندوب مصر ليتكلم فى مساهمة الدولة المصرية رسميا فى مكافحات المسكرات ، فنهض الأستاذ غلوش ، وأبان عن اهتمام الحكومة المصرية بهذا الأمر وإزماعها وضع تشريع يضع حدا لأضرارها ، وكان من ذلك حصر سلطة الترخيص بفتح حانات فى الأحياء الوطنية فى يد وزارة الداخلية ، فترتب على ذلك أن نقص عدد المحال التى تبيع الخمر من ٧٢٦ سنة ١٩٠٤ الى ٤٨٩ سنة ١٩١٧ ، وذلك رغما عن زيادة عدد السكان .

وشفع هذا بذكر اهتمام وزارة الصحة بهذا الامر أيضا صيانة للصحة العمومية . وهى على وشك استصدار قانون بمنع بيعها بعد الساعة العاشرة ، وتحريم تقديمها لمن تقل أسنانهم عن التاسعة عشرة ، وهى تقوم بمنع بيع الخمر المغشوشة ، وبمحاكمة بائعيها ، وبعدم النشر عنها فى الصحف وعلى جدران الدور . ثم ذكر أن وزارة الدفاع ووزارة المالية ورجال الدين والجامع الأزهر تحت زعامة الأستاذ الامام يعاونون من جانبهم على محق هذه الآفة .

وختم خطبته بذكر المثل الأعلى الذى يضربه حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، بمنع القصر الملكى من تقديم الخمر فى الحفلات .

ثم دعت لجنة نشر الدعوة الدينية فى العالم حضرة الأستاذ غلوش ليلقى كلمة فى الخمر من الوجهة الاسلامية ، فلبى الدعوة ، وأفاض فى ذلك بما كشف من حكمة الاسلام ، وجلى عن قوة أصوله وسلامة مبادئه .

وفى الجلسة الختامية للمؤتمر ، تكلم مندوب مصر الأستاذ غلوش ، فشكر الشعب الفنلندى والحكومة الفنلندية باسم الشعب المصرى والحكومة المصرية ، على مالقيه من حسن الضيافة والترحيب .

ومما حصل عليه الأستاذ غلوش مما يوجب الفخر لمصر أنه كان واحدا من خمسة رجال رشحوا لينوبوا عن رئيس المؤتمر فى جلساته المتوالية .

ثم ختم المؤتمر أعماله بإصدار قرار بأن يكون مكان انعقاد المؤتمر التالى سنة ١٩٤١ فى فرنسا .

ولا يفوتنا أن ننوه هنا أيضا بالمذكرة التى قدمها حضرة الأستاذ أحمد غلوش الى حضرات شيوخ الأمة ونوابها فى شأن المشروع المقدم من الحكومة بتعديل لائحة المحال العمومية ومكافحة الخمور ، فقد ألقى بها نورا على كثير من مواطن البحث تخدم هذا الموضوع خدمة جليلة . فنشكر لحضرة الأستاذ أحمد غلوش ، كلل الله جهوده بالنجاح ، وأثابه على هذه الخدم بما يثيب عباده المجاهدين .

أوائل الشهور العربية :

هل يجوز شرعاً إثباتها بالحساب الفلكى ؟

وضع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ احمد محمد شاكر رسالة بهذا الاسم عالج فيها مسألتين : هل يجوز الأخذ بأقوال الفلكيين فى إثبات أوائل الشهور العربية ؟ وهل يجوز توحيد أوائل هذه الشهور لجميع بلاد المسلمين . فسلك فى الاجابة على هذين السؤالين مسلك الباحث الضليع فى الحديث والفقه ، وكان من جوابه على المسألة الاولى : يجب الأخذ بأقوال الفلكيين وعدم الاعتداد بشهادة الرؤية ، لما فى الأولى من القطع ، ولما يتطرق على الثانية من الخطأ والكذب .

وأجاب عن الثانية : بأن يجوز توحيد أوائل الشهور العربية لجميع الأمم الاسلامية ، واتخاذ مواقيت مكة مواقيت لبلاد المسلمين كافة بصرف النظر عن اختلاف المطالع .

وإننا نوافق على رأى الأستاذ فى وجوب الاعتداد بالتقريرات الفلكية ، لا سيما وقد ذهب اليه أئمة من المتقدمين . وأما رأيه الثانى فنكتفى بعرضه على حضرات رجال الدين راجين أن يوافونا برأيهم فيه . ومن واجبنا فى هذا المقام أن نشيد بألمعية الأستاذ أحمد شاكر ، وأن ننوه بنزعته التجديدية ، أكثر الله من أمثاله الغيورين على الدين .

أقدم جامعة إسلامية فى العالم :

وضع سعادة محمد خالد حسنين بك رئيس مفتشى العلوم والآداب بالجامعة الأزهرية رسالة بهذا العنوان ، صغيرة الحجم ولكنها كبيرة الفائدة ، جمعت فى صفحاتها الاثنتى والثلاثين كل

مايجب أن يعرف عن تاريخ الأزهر ، ونظام التدريس فيه قديما وحديثا ، والقوانين التى صدرت لتنظيمه ، ومراحل التعليم فيه ، والعلوم التى تدرس به ، والشهادات التى يمنحها المتخرجون فيه ، وإدارته ومجالسه الأعلى ، والمعاهد التابعة له ، وعدد طلبته المصريين والأجانب ، والممالك التى ينتسبون إليها ، وسكناهم ، وموارد الأزهر المالية ، ودور كتبه ، ومدينة الأزهر الحديثة ، وما يدرس فيه من علوم كونية ، ولغات أجنبية ، ومذهبه فى المحافظة على الدين ، ورسالته فى العالم ، وما أغدق عليه المغفور له الملك فؤاد وصاحب الجلالة الملك فاروق ـ أعزالله ملكه ، وأيد عرشه ـ من ضروب الرعايات . فجاءت رسالته تغنى عن مؤلف ضخم . وإنها لمقدرة فى التأليف تسجل لسعادة خالد بك حسنين ، ويغبط عليها . وفقه الله لجلائل الأعمال وأمده بروح منه .

المنظومة الشكرية :

لسعادة السيد شكرى باشا قصيدة مطولة أودعها كل ما عن له أن يتصدى للكلام فيه من دين وتاريخ وأدب وحوادث ، على نظام لم يسبق اليه ، وعلق عليها بما يشرح مجملاتها ، فالمطلع عليها يشرف على ما وقع بمصر من الحوادث من عهد محمد على والى مصر الى اليوم ، سواء كانت سياسية أم علمية وأدبية ، مما يصعب أن يجده القارئ فى مؤلف واحد . وقد أتحفنا بالمجلد الرابع منها وهو يقع فى ٧٨٠ صفحة ضمنها سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وشرح ما أجمله فى أبياته شعراً ، فجاءت سيرة حافلة بالتواريخ ، وبحياة من ورد بها من الصحابة . فنشكر لسعادة الباشا عنايته العظيمة بالأدب والتاريخ ، ونرجو أن يطيل فى أيامه ، وأن يوفقه لما يرجوه من الصالحات .

اللمعة البهية فى الأدلة الاجمالية :

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ ابراهيم الراوى الرفاعى ، قدم صدق فى العلوم الدينية ، وتاريخ الفرق ، والمسائل الخلافية ، وهو اليوم من أقطاب العلم فى بغداد يرجع إليه شيوخها فيما يشكل عليهم من مسائله ، ويغمض من دقائقه . وقد وضع فى العهد الأخير رسالة دعاها (اللمعة البهية) ضمنها الكلام على مذهب الشيعة والوهابية ومصنفاتهم وأدلتهم . وضعها لنشر معلومات أولية عن هذين المذهبين تصلح للتفاهم بينهما . وقد سلك فى إيراد ما أراده طريقة تقرير الحقائق ، بعيدا عن التعصب المذموم ، وتحرى أن يتلاقى هذان المذهبان فى غايتهما التى ينشدانها من طريقين مختلفين ، وهى القيام على السنة الصحيحة ، والطريقة القويمة .

وقد أبدع الأستاذ فى بيان المذهبين إبداعا دل على سعة اطلاعه ، ووقوفه على كل ما كتب عنهما فى أدوار تاريخهما ، وتجلى مراده فى التوفيق بينهما تجليا يستحق عليه كل ثناء ، فنرجو أن يكلل الحق مسعاه بالنجاح ، وأن يثيبه على عمله ثواب العاملين .

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

وقعة بدر — النظام والشورى والاستبسال وتربية الوحى

ظل النبي صلى الله عليه وسلم مرتقبا عود تجارة قريش من الشام حتى بلغه خبر رجوعها، فندب صحابته للخروج معه اليها، فلبى دعوته ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، وهو عدد يكفي لما هو بسبيله، فاكتفى بهم، وكان عدد مطاياهم اثنين وسبعين يعتقبونها، منها فرسان وسبعون بعيرا.

فلما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على أموالهم، وكان قائدا لحامية القافلة، أرسل الى قريش رسولا يعلمهم بالخبر، واتبع هو طريقا غير طريق القوافل، رجاء أن يفلت ممن يترصدونه. وتسارعت رجالات قريش الى نجدته فخرجوا تحت قيادة كبرائهم في تسعمائة وخمسين مقاتلا، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير. ولم يعلم رسول الله بكل هـذا، وقد عسكر خارج المدينة وأرسل رجلين يتعرفان له الأخبار، ثم سار حتى بلغ الروحاء، وهي على بعد نحو أربعين ميلا من الجنوب الغربي للمدينة، وهنالك جاءه الخبر بأن قريشا قد هبت تدافع عن أموالها، وأن تجارة قريش تمر من بدر غدا أو بعد غد. فاستدعى النبي صلى الله عليه وسلم كبراء جنوده وأخبرهم بأن الله أوحى إليه ووعده إحدى الطائفتين: قافلة التجارة، أو جيش قريش، فتبين أن الرأى الغالب يميل الى الاستيلاء على القافلة، واحتجوا بأنه لما استنفرهم لم يذكر لهم أنه بسبيل قتال، ليأخذوا له عدته، فأنزل الله في ذلك قرآنا يعاتبهم وهو قوله تعالى: « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » ، أى أنكم طابتم الأيسر عليكم وكرهتم ما فيه عز وشوكة لكم.

عند ذلك قام المقداد بن الأسود وتكلم، وكان مما قاله: « يارسول الله امض لما أمرك الله، والله لو سرت بنا الى بَرْك الغِماد (١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه». فدعا له بخير. ثم التفت الى رجاله وقال: أشيروا على أيها الناس، وهو يريد أهل المدينة، لأن البيعة التى أخذها عليهم قد يفهم منها أنه لا تجب عليهم نصرته إلا ما دام مدافعا وهو بين أظهرهم.

(١) اسم موضع بعيد من بلاد العرب . ويطلق ويراد به أقصى المعمورة .

فقال له سعد بن معاذ سيد بنى الأوس : كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فقال : أجل .

فقال سعد بن معاذ : « قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا ، فامض لما أمرك الله ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لنخوضنه معك ، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غدا ؛ إنا لَصُبُر عند الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله » .

فأشرق وجه النبى صلى الله عليه وسلم لهذا الكلام وسر به . وعند ذلك التفت الى أصحابه وقال : « أبشروا والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم » .

فأدرك القوم من هذا الكلام أن الحرب واقعة لا محالة .

قلنا إن أبا سفيان بن حرب قائد حامية القافلة اتبع طريقا غير طريق بدر ونجا بالتجارة ، وما كاد يأمن عليها حتى أرسل من يبلغ الجيش الذى سار لخلاصها أنه لا حاجة الى الحرب فقد أفلت هو ورجاله وما معهم .

فقال أبو جهل بن هشام وهو من رؤساء ذلك الجيش : لا نرجع حتى نصل الى بدر ونقيم بها ثلاثا ، ليسمع العرب بما فعلنا ، فيهابوننا أبد الدهر .

فلم يرق هذا الرأى الأخنس بن شريق الثقفى فأمر قومه وحلفاءه أن يرجعوا فرجعوا . وسار جيش قريش حتى وصلوا الى وادى بدر فنزلوا شاطئه الأقصى فى أرض سهلة .

فلما بلغ النبىَّ صلى الله عليه وسلم ذلك ، سار حتى نزل من وادى بدر عند شاطئه الأدنى بعيدا عن الماء فى أرض سبخة ، فأصبح المسلمون ولا ماء لديهم ، فكادت تتثبط عزائمهم وهم قريبو عهد بالاسلام ، فاتفق أن جادتهم السماء بمطر مدرار حتى امتلأ الوادى وفاض ، فشربوا واتخذوا الحياض ، وملأوا أسقيتهم ، وتلبدت الأرض التى تحت أرجلهم . وكان أثر هذا الغيث وبيلا على المشركين ، فإن المياه أوحلت أرضهم وجعلتهم لا يستطيعون الانتقال وقد أشار الله الى هذه المعونة غير المتوقعة بقوله تعالى : « إذ يُغَشيكم النعاس أَمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام » .

ثم سار النبى صلى الله عليه وسلم على رأس جيشه حتى نزل أدنى ماء من بدر . فقال له الُحباب بن المنذر الانصارى وكان مشهورا باصالة الرأى : يارسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال رسول الله : بل هذا هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب : يارسول الله ليس لك هذا بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته ، فتنزله ونغوِّر ما عداه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى . ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ، ثم أمر بالآبار التى خلفهم فغُوِّرت ، وبنى حوضا على البئر التى نزلوا اليها .

وبعد ذلك بُنى له عريش (١) فوق تل ليشرف منه على المعركة ، ولما اجتمع المسلمون واستعدوا للحرب نهض رسول الله وقوَّم صفوفهم ، وجعل مناكبهم متلاصقة كأنهم بنيان مرصوص . ثم نظر الى قريش وقال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُّك وتكذب رسولك ، اللهم فنصْرَك الذى وعدتنى به » . ثم نظر الى أصحابه وأخذ يحثهم على الثبات فى مجالدة أعداء الحق ، وكان مما قاله : « إن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم » .

ثم حدثت مبارزة بين رجال من المشركين ورجال من المسلمين ، وبعدها التفت النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم وقوف وقال : « لا تحملوا حتى آمركم ، وإن اكتنفتم القوم فانضحوهم بالنبل ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : « سيهزم الجمع ويولون الدبر ، والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، ومن قَتل قتيلا فله سَلَبه » .

وأمر النبي بالحملة على المشركين ، فما هى إلا ساعة من نهار حتى تزلزلت أقدامهم ، وخارت قواهم ، وأخذوا يولون الأدبار ، ثم أفضى بهم التراجع الى هزيمة منكرة .

ولما أحصى القتلى وُجدوا سبعين فيهم رجال يعتبرون من كبار سادات قريش ، منهم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبو البخترى بن هشام ، والجراح والد أبى عبيدة ، وأمية بن خلف وابنه على ، وحنظلة بن أبى سفيان ، وأبو جهل بن هشام ، ونوفل بن خويلد ، وعبيدة والعاصى ولدا أحيحة سعيد بن العاص بن أمية .

وعُد الأسرى فكانوا سبعين رجلا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل منهم عقبة ابن أبى مُعَيط والنضر بن الحارث ، وكانا من أشد خصوم المسلمين ، والمؤلبين عليهم ، والمستهزئين بهم .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم أن يدفن قتلى المشركين فى قليب بدر ، فلما تم دفنهم ذهب الى شفة ذلك القليب وجعل يناديهم بأسمائهم ويقول : أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله ، فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟

فقال له عمر : يارسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟

(١) العريش ، البيت يستظل به . وما عرش للكرم . وشبه الخيمة من خشب وثمام جمعه عرش بضمتين .

فقال له رسول الله : والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

وكان عدد من قتل من المسلمين فى وقعة بدر أربعة عشر رجلا .

الخلاف على مصير أسرى بدر .

استشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يفعل بالأسرى ، فرأى عمر أن يقتلوا ، محتجا بأنهم صناديد قريش ، وأئمة الكفر فيهم ، وقادتهم الى الضلالة ؛ ووافقه سعد بن معاذ وعبد الله ابن رواحة .

ورأى أبو بكر أن يأخذ منهم الفداء قائلا : إن ما نأخذه منهم يكون لنا قوة على الكافرين، وعسى الله أن يهديهم للاسلام فيكونوا له عضدا .

فمال النبى صلى الله عليه وسلم الى رأى أبى بكر ، فكان منهم من يفتدى نفسه بأربعة آلاف درهم ، ومنهم بأقل من ذلك الى ألف على قدر طاقتهم . ومن لم يكن معه فداء وكان يحسن القراءة والكتابة جُعل فداؤه أن يعلم عشرة من غلمان المدينة .

وكان من الأسرى سهيل بن عمرو ، وهو من خطباء قريش ، وقد طال ما آذى المسلمين بلسانه ، فخاطب عمر فى شأنه النبىَّ صلى الله عليه وسلم قائلا : دعنى يا رسول الله أنزع ثنيتىْ سهيل ليندلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدا .

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لا أمثِّل فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ، وعسى أن يقوم مقاما لا تذمه . وقد حقق الله ما أنبأ به النبى ، وذلك أنه لما توفى صلى الله عليه وسلم وأراد أهل مكة أن يرتدوا ، كما ارتدت قبائل العرب ، قام فيهم خطيبا ونصحهم بمراجعة عقولهم ، وعدم الإصغاء لمن يريدون تضليلهم ، فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه .

عتاب الله للمسلمين فى أمر الفداء :

قرر النبى صلى الله عليه وسلم بعد أخذ رأى أصحابه أن يقبل الفداء من المشركين الذين أُسروا ، فلما تم هذا الأمر نزل قرآن يعاتب المسلمين على ما فعلوا ، ويشير الى أن الأولى بالعمل كان أن يقتلوا ، لأنهم وهم سادة قريش كانوا سببا فى الصد عن دين الله ثلاث عشرة سنة ، وأنهم أسرفوا فى إيذاء المؤمنين واضطهادهم ، وأذاقوهم مر العذاب أيام كانوا بين أظهرهم ، وأنهم لا يزالون يصرون على معاكسته ومكافحته ، رجاء أن يتمكنوا من حل جماعته ، والتعفية على أثره ، فقال تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثخن فى الأرض ، تريدون عرَض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » .

معنى هذا أنه ليس لنبى أن يكون له أسرى حرب إلا بعد أن يكثر من قتل أئمة الكفر ، لا أن يتركهم بعد أن يمكنه الله منهم ، ليعودوا الى شر مما كانوا عليه ، فيبذلوا جهدهم للثأر من المؤمنين ، ولتعطيل نشر الدين .

هنا يمكن أن يقول معترض : إن الذى عُرف عن الاسلام أنه دين رحمة وسماحة وصفح ، وأنه فيما سنه للحرب قد فاق فى تسامحه وسعة صدره كل ما عرف من أوضاع المدنية الراهنة ، وهذا من أقوى الأدلة على إلهيته ، فما باله فى هذا الموطن يعتب على المسلمين أخذهم بمبدأ الرحمة فى معاملة رجالات قريش الذين أُسروا فى معركة بدر ؟

نقول : إننا نخالف المعترض ونرى فى هـذا التشديد أروع مظهر لإلهية هـذا الدين . وسنجلى هذا الفهم بقليل من البيان :

ذلك أن الأصول الاسـلامية التى يذكرها المعترض لم تـكن قـد نزلت بعد ، وما نزل فيها قرآن إلا بعد أن اشتد ساعد الاسلام ، وتوالت المعارك بينه وبين خصومه ، فلا تناقض هنا بين ما أوحى من وجوب قتـل الأسرى قبل الإثخان فى الأرض ، وبين الأصـول التى يذكرها المعترض .

للمعترض هنا أن يقول إن هذا الأصل ينافى الرحمـة التى يجب أن يتصف بها شرع إلهى .

وعلينا أن ندعوه ليتأمل معنا فى أن قتـال المسلمين لمشركى العرب كان الداعى إليه كسر شرتهم فى معاكسة الاصلاح العالمى الذى هبوا لنصرته ، وقد ارتكبوا ضده من ضروب الاضطهاد ما ينافى كل رحمة ، ويسجل عليهم كل وحشية ، فلا يكون موافقا للمنطق أن يقبضوا عليهم ويتركوهم فى مقابـل فدية يؤدونها إليهم ، ليعودوا الى أشد مما كانوا عليه ، فيضطروا للعود الى قتالهم وإزهاق أرواح كثيرة فى تدويخهم .

فاللوم جاء مترتبا على أن المسلمين ، وقد قبضوا على هؤلاء الطغاة الذين تلوثت أيديهم بدماء رجال من المؤمنين الأولين ، كان لايجوز لهم أن يطلقوا سراحهم ولم يذيقوهم وبال وحشيتهم.

وأما من ناحية أن فى العتاب القرآنى أروع مظهر لإلهية هذا الدين ، فذلك لأن مدعى النبوة يحتاج عادة الى ضروب من التسامح يكسر بها حـدة خصومه ، ويفل ما اسـتطاع من غَرْبهم . فإذا ظفر ببعضهم فى إبان ضعفه ، فلا يبالغ فى النكاية بهم تفاديا من أن يظهر بمظهر المتجبر ، فيُضغن عليه نفوسا كثيرة ، ويحملها على الاستماتة فى قمعه وإبطال أمره .

ومما لا يحتاج لتدليل أن قتل سبعين أسيرا من رجالات أشهر قبيلة فى البلاد العربية كان يقع من باقى أفرادها موقعا مؤلما للدرجة القصوى ، ويحملهم على تلمس الأنصار والأحلاف للأخذ بالثأر ممن قتلوهم .

فتجد مدعى النبوة يفكر فى هـذا الأمر جيدا ، ويتقى حصوله جهده ، فإذا ما جرى على شاكلته من هذه المصانعة ، حاول أن يستغلها لمصلحته ، متطلبا فرصة أخرى من مثلها لبلوغ مراده من السلطان والغلبة .

ولكن مجيء هذا العتاب يقلب هذه المدارأة رأسا على عقب ، ويتركها كأن لم تكن ، ويجعل المسلمين كأنهم ارتكبوا ما تحاشوه جهد استطاعتهم ، لأنه يؤذن بأنهم لن يكونوا بعد هذه المرة على شيء من التسامح قبل أن يثخنوا فى أعدائهم . وهذه صراحة تجافى ما عليه الجماعات بعضها إزاء بعض من المخاتلات والمداورات ، وتنشئ حالة لا تقوى على التظاهر بها إلا جماعة واثقة من مصيرها ، متحققة من مآلها ، لا يقفها دون بلوغ غايتها أن يتألب العالم كله عليها .

وفى كل هذا دليل ضمنى على أن الاجتماع الاسلامى كان يتولاه ويربه الوحى الإلهى فوق العقل البشرى ، لأن العقل فى مثل هذه الحالة يأبى أن يقف مثل هذا الموقف من الصراحة ، ويكبر عليه أن يصم نفسه على رءوس الاشهاد بأنه فيما تسامح به قد آثر عرض الحياة الدنيا على ما وُعد به من ثواب الآخرة .

فان قيل : إذا كان الأمر كما تقول فلم لم يتول الوحى الإلهى المسألة من أول أدوارها ، ولم لم يتداركها قبل تنفيذ القرار الذى اتخذ فى شأنها ؟

نقول : إن ولاية الوحى لجماعة المسلمين كانت على طراز التربية العملية الاستقلالية ، لا التربية النظرية الاتكالية . وكان القصد منها أن يتألف المجتمع الاسلامى قادرا على القيام بنفسه ، ومتمرسا على مكافحة الحوادث ، ومعالجة الكوارث بتدبيره ، حتى إذا تخلف عنه الوحى لم يضطرب فى سيره ، ولم يحتر فى تصريف أمره .

وقد عُرف أخيرا أن خير التربية هى أن لا تبالغ فى حياطة ولدك ، وحمايته من الأخطاء وما تجر اليه من النتائج ، ولكن أن تتركه لتصريف نفسه مع مراقبته ، فإن طاش وأصابه خدش ، أو أخطأ فى تقديره وعراه جرح ، فإن ذلك يفيده فى إكسابه الحزم والتثبت مالا يفيده ملء ذهنه من نظريات العلم .

كذلك الجماعة الاسلامية قد تولاها الوحى على هذا الأسلوب من التربية ، فتركها لعقول آحادها بعد أن أمدها بكل ما يُسمح به للبشر من نور الحكمة ، حتى إذا أحسنت وجدت مصداق ما وعدها به كتابها من استقامة الأمور ، وانتظام الأحوال ، وإن أساءت ذاقت وبال أمرها ، وأدركت حكمة ما أمرت باتباعه من الأصول القيمة .

هذه كانت سيرة الوحى فى ولايتها ، وقد نجح هذا الأسلوب نجاحا لا يعرف فى تاريخ البشرية له مشبه ، ألم تتأد الأمة الاسلامية فى سنين معدودة الى ما لم تبلغه الأمم التى سبقتها فى قرون كثيرة ؟

محمد فريد وجدى

التفسير

سورة الشمس وضحاها



ذكرنا لك فى مقالنا السابق أن القرآن له عناية كبرى بذكر آيات الأنفس والآفاق علوية وسفلية ، وأنه يتفنن فى ذلك تفننا عجيبا ، فتارة يقول : « إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » ، وتارة يقول : وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، وتارة يقول : « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » ، وتارة يقسم بتلك العجائب التى غفل الناس عن النظر فيها والتأمل فى خوافيها ، فهم يمرون عليها وهم معرضون كما فى الآية الكريمة . ولو تأمل الانسان فى ذلك قليلا لامتلأ قلبه إيمانا ونفسه إيقانا ، ولوجد من ذلك لذة صافية لا تشبهها لذة ، ونعيما روحانيا لا يقاربه نعيم ، ولكن الناس محبوسون فى سجن الماديات ، هائمون فى أودية الشهوات ، لا يدرون من أين جاءوا ولا الى أين يذهبون « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » . وقد رأيت كلاما ممتعا فى هذا الموضوع لبعض الأوربيين الذين نظروا وفكروا ، نسوقه إليك لتعرف الفرق بينهم وبيننا معشر المسلمين الذين ينادى كتابنا بأن فى الأرض آيات للموقنين ، ويصل من تعظيمها ولفت الأنظار إليها أن يقسم بها عسى أن يلتفت لذلك أرباب النفوس الجامحة ، والعقول النائمة ، والقلوب القاسية التى هى كالحجارة أو أشد قسوة ، فنقول :

قال « سينكا » أحد الفلاسفة المعروفين مخاطبا لذلك الانسان الغافل عن عجائب الكون : « إنك أيها الانسان لذاهل عن جمال القبة الزرقاء ، فلم تراقب شفقا ، ولا ساهرت بدرا ، ولا سامرت نجوما . هل فكرت من أين النور لعينيك فتبصر ، والدم لقلبك فتحيا ؟ وهل اتفق لك أن جعت فاشتهيت ما تسد به الرمق لتعرف قيمة نعم الله وآلائه بما خلق لك من مواش وقطعان ، وما أعد لها من كلأ ومرعى ؟ ألا فاحمد ربك الذى برأك من لا شىء ، وأتى بك من العدم ، وأخرجك من الظلمة الى النور » .

ويقول غيره : «ما الأرض إلا جنة أنزلت فيها آيات الجمال ، ومجرد وجودنا عليها بينة البينات .
ألا يذكرك ذلك قوله تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » ،
وقوله : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . يُنبت
لكم به الزرعَ والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون».
فأين ذلك الانسان الرقيق الوجدان الذى يهيج حبه لله ، النظر فى آيات الله ، وما يقع عليه
بصره من مخلوقات الله مما يثير عواطفه ويهيج لواعجه . والنظر فى آيات الله يوصل الى معرفة
عظمة الله ، ويبعث على الطمأنينة والسلام ، بل على السرور والحبور . وإن ذلك ليسبغ علينا
من آلاء الأفكار البهجة ، ونعمة القناعة والسلام العقلى ، ما يفوق كل ما تصبو إليه النفس
من بهجة الدنيا وزخرفها . وشتان ما بين لذة جسمانية ولذة روحانية . فالشمس تشرق لتحييه ،
والبدر يطلع ليناجيه ، والعصافير تغرد لتشجيه ؛ يمر بالأزهار يناديها بأسمائها فتبسم له
ثغورها ، وتحدثه حديث تنويرها وتفتيحها ، وبالأشجار فتضحك له أغصانها ، وترقص له
أفنانها ، وتسرد على سمعه أنسابها وفصائلها وأنواعها ، يستقبل الفصول ويودعها كأنه يودع خلانا
عرف أطوارهم وأخلاقهم ، فهى تمضى وتحفظ لها فى نفسه تذكارات جميلة حتى تعود إليه
فى أدوارها وأوانها العام التالى » الى أن يقول :

«ولو كان شروق الشمس وغروبها ، وما تكون عليه بينهما، حوادث نادرة الطروء، لأصبحنا
مسحورين بجمال الفجر إذ تطفر الشمس غزالة من وراء الجبال ، ولأمسينا مأخوذين بسناء
الشفق إذ تتوارى خلف البحار . وحقا إن تلك الأشعة الذهبية التى تنبثق من جبين الأفق
صباحا ومساء ، كنز ثمين يفوق كنوز النضار ، وثروة طائلة تسمو على ثروة الذهب الإبريز .
هب أن خلقا قدر لهم أن يولدوا ويعيشوا فى أحشاء الأرض على أوفر ما يكون من السعة
والبحبوحة والرفاهية ، وإذا بهم يشاهدون أرضا مترامية الأطراف ، وخضما متسع النطاق ،
وفضاء لا نهاية له ، وغيوما متلبدة ، وسحابا ممطرا ، ورياحا عاصفة ، وبروقا وامضة ، ورعودا
قاصفة ، ثم تحين منهم التفاتة الى مليكة النهار فيأخذهم سناؤها ، ويذهلهم جمالها ، وترهبهم
عظمتها طالعة من أفق الشروق ، فصاعدة فى قبة الفضاء ، فمائلة الى أفق الغروب ، إذ يعجبون لها
مصباحا واحدا ينير الفضاء على اتساعه ، ثم تنسدل سجوف الظلام وتتراخى عليهم ستائره وحجبه
فيعروهم ذهول الناظر المبهوت ، الجاهل ماسيكون ، وإذا بنجوم وأقمار ظاهرة بعد الخفاء ،
بادية بعد الاحتجاب ، تطلع وتغيب ، وتسفر وتحتجب ، متنقلة فى أبراجها ، جادة فى سيرها حسبما
تشاء نظاماتها ونواميسها التى رتبتها حكمة الحكيم العليم . لامراء أنهم يوقنون لساعتهم بوجود
إله عظيم حكيم عليم ، ويؤمنون وطيدا ، ويعتقدون أكيدا أن ما رأوه إنما هو صنعة يدى ذلك
الإله الخفى الأسرار، العظيم الاقتدار، الذى كان قد أتاهم نبؤه من قبل. وإذا أطلنا هذه النظرة

الى الانسان والطبيعة وما يكون فيهما من العجائب ، أفلا نعجب كيف تتحول النباتات والأوراق والأزهار والأثمار والبزور خبزا ولبنا وعسلا . . . » الى آخر ما قال أولئك الفلاسفة مما لا يمكن إحصاؤه ، ولا يتيسر استقصاؤه .

ولعلك عرفت بذلك كله سر الإقسام بالشمس والقمر ، وفهمت عظمة ذلك القسم على ما يشير اليه قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .

ويحسن بعد هذه المقدمة التى هى لب المقصود ، أن نشرع فى التفسير ، فنقول :

الواو فى قوله : « والشمس » واو القسم ، وجواب ذلك القسم قوله : « قد أفلح من زكاها » ، على ما ستسمع . والمراد بضحاها ضوؤها مطلقا ، أو وقت الضحى الذى يظهر فيه سلطانها ، ويعظم به لمعانها . وقد عرفت أن الله يقسم ببعض مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها ، لأن الذى يقسم الله تعالى به يحصل له وقع فى القلب فتكون الدواعى الى تأمله أقوى .

هذا وقد قال بعض المفسرين : إن الكلام على تقدير المضاف ، أى ورب الشمس وضحاها . وقد علمت أنه لا داعى لذلك ، ولا لتحكم الفقهاء فيه بآرائهم ، لأن الله يقسم بما شاء مما عرفت بعض أسراره ، ولاح لك قليل من أنواره ، على أنه سيقسم به تعالى فى قوله : « وما بناها » الخ ، وهو لا يلتئم مع هذا التقدير كما هو ظاهر .

ولا نزال نقول : إن الشمس من آيات ربنا الكبرى ، ونعمه التى لا نطيق لها شكرا ، فليس يحصى ما تعلق بها من المنافع ، فان الناس بدونها لا بقاء لهم ولا حياة ، فان كل شىء فى هذا العالم من نبات وحيوان وإنسان لا بد له من الشمس . وإن شئت فانظر الى الناس فى الليل نائمين وكأنهم أموات ، فاذا ظهر أثر الصبح من المشرق صار ذلك كالصور الذى ينفخ قوة الحياة فى الأحياء فصارت الأموات أحياء ، ولا تزال تلك الحياة فى الازدياد والقوة والتكامل حتى تصل الى كمالها وقت الضحوة .

وقد رأينا أن ننقل لك ما قاله اللورد « إفبرى » فى هذا الموضوع ، فنقول :

« الشمس هى كرة متأججة بنار أشد وطيسا من كل نار على الأرض ، وهى أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة . أما بعدها عنا فنحو ٠٠٠ و٥٠٠ و ٩٢ ميل ، هذا وإن هى إلا نجمة وليست هى فى عداد النجوم الكبرى ، وهنالك مشكلة أخرى أعيا حلها النهائى عقول العلماء والفلكيين ، هى أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تزل تشع نفس المقدار أو نحوه من الحرارة مدة ملايين من السنين ، فإن كانت الحرارة الصادرة عنها نتيجة احتراقها فكيف لم تفن مادتها مع توالى العصور ؟ فلا شك أن طريقة الاحتراق الجارية فيها غير ما نعهد ونألف ، وإلا لكفاها ٦٠٠٠ سنة لتحترق وتنفد حرارتها .

« أما فضل الشمس علينا فليس أنها مصدر نورنا و نارنا فقط ، بل هى محور نظامنا السيارى ، ومصدر حياتنا أيضا ، فهى التى تبخر مياه البحر وترفعها غيوما فى الجـو ، وتنزلها أمطارا على الأرض ، حيث تجرى جـداول وأنهارا تروى زرعنا ، وتنمى أغراسنا ، وتثير الرياح ، وتهيج الأنواء ، فتطهر الهواء وتنقيه ، وتزجى السفن والمراكب فى عباب المحيط ، وهى التى تجر المركبات ، وتدير الآلات البخارية ، وما الفحم الحجرى إلا حـرارة نورها المـدخرة منذ قديم الأدهار لينتفع بها بنو العصور المتأخرة ، ولا حياة لولا الشمس لحيوان ولا لنبات ، فالحيوانات تنتعش بحرارتها ، والأطيار تغرد بأنوارها وتسبح تسبيحا ، وبحرارتها وأنوارها تبزغ النباتات وتنمو الأشجـار ، وتزهو الأزهار وتنضج الأثمـار ، فنحن مدينون للشمس بمأ كلنا ومشربنا ، وهى علة وجودنا على هذه الأرض » .

ولنقف هنا اليوم تالين قوله تعالى: « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألبـاب ، الذين يذكرون الله قيـاما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار » . وقوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلافِ الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حـديث بعد الله وآياته يؤمنون » . « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

حول الجهاد

لمـا أرسل أبو بكر رضى الله عنه خالدبن الوليد ليقاتل بعض المرتدين من العرب ، كتب له :

اعلم أن عليك عيونا من الله ترعاك وتراك ، فاذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة ، ولا تغسل الشهداء من دمائهم ، فان دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة .

وحض منصور بن عمار على القتال وكان بين السامعين امرأة فطرحت رقعة كتب فيها : رأيتك يا ابن عمار تحض على الجهاد ، وقد ألقيت ذؤابتى فلست أملك والله غيرها ، فبالله اجعلها قيـد فرس غاز فى سبيل الله ، فعسى الله أن يرحمنى . فارتج المجلس بعـد قراءة هذه الرقعة بالبـكاء تأثرا ممـا فعلت

نقول : بمثل هذه النفوس تحيا الأمم ، وبمثل هذه الهمم تدين لها الأمصار ، وتخضع لها الأقطار ، فان جمعت الى هذا الشعور حب العدل والانصاف والمساواة كما كان عليه المسلمون ، أصبحوا سادة الأرض ، وخلفاء الله فيها .

السنة

التحذير من الفتن

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن» . رواه البخارى ومالك وغيرهما .

يتعلق بشرح هـذا الحديث أمور : (١) بيان معناه والغرض منه . (٢) بيان معنى الفتن التى نهى عنها الدين وأمر بالفرار منها . (٣) بيان ما يترتب على العزلة والاختلاط من منافع ومضار .

(١) إن هذا الحديث وإن كانت عبارته ظاهرة ليس فيها شىء من الإبهام ، إلا فى كلمة « شعف الجبال » بالشين المعجمة والعين المهملة مفتوحتين ، وهو أعلى الجبال ورءوسها ؛ ولكنه يدل دلالة واضحة على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاتصال بالوحى الإلهى ، والعلم بما سيكون عليه العالم فى آخر الزمان من الهرج والمرج ، والاضطراب الذى يذهب بالمعنويات لتحل محلها الماديات ، بحيث لا يكون للناس هم إلا فى قضاء شهواتهم ، والحصول على لذاتهم ، بكل ما أوتوا من حول وقوة ؛ وتلك حالة تستلزم لا محالة أن تكثر الفتن والاضطرابات ، وتغلب على الأنفس طباع الحيوانات المفترسة التى لا همّ لها إلا الحصول على فريستها وقضاء لذتها بكل الوسائل .

وقد وردت فى هذا المعنى أحاديث كثيرة ذكرها البخارى وغيره فى كتاب الفتن ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « يتقارب الزمان ، وينقص العمل ، ويُلْقَى الشح ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرْج » . ومعنى يتقارب الزمان : تذهب بركته فينقضى سراعا فلا يتمكن العاملون من أداء أعمالهم على الوجه المطلوب ، لما يعتريهم من مشاغل الشهوات التى يلهون بها عن أداء ما عليهم من واجبات ، فيضيع عليهم زمنهم وهم لاهون غافلون . ولا مراء فى أن ذلك مدعاة للغفلة عن الفضائل الخلقية ، والانصراف عن تحصيل العلوم التى تهذب المجتمع الانسانى ، وتؤلف بين الأرواح والقلوب . ولهذا قد ورد فى بعض الروايات تصريح بأن العلم ينقص كما ينقص العمل ، ولا خفاء فى أن نقص العمل يستلزم نقص العلم ، لأن العلم يتطلب عملا جديا ومجهودا

كبيرا ، فمتى استولت الغفلة على النفوس ، واستحكمت فيها الشهوات ، انصرفت عن الفضائل الخلقية ، وانغمست فى اللذات ، فانقضى الزمان سراعا كأنه لم يكن ، وضاع لذلك العلم والعمل معا . وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الهرْج ما هو ، فقال : القتل ، القتل . فمعنى قوله : « يكثر الهرْج » : يكثر القتل . وذلك لأن بواعث الشهوات تدفع الناس الى التزاحم عليها ، فيفضى بهم ذلك الى قتل بعضهم بعضا .

وهذا الإخبار الذى أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم حق لا ريب فيه ، فإن التزاحم على الماديات وصل بالناس الى حد لا يمكن وصفه . فالحديث الذى معنا يأمرنا أن نتقى الفتن بكل ما نستطيع من قوة ، فإذا لم نستطع فررنا منها وابتعدنا عنها ، ولو أدى بنا ذلك الى شظف العيش والسكنى فى رءوس الجبال .

(٢) أما معنى الفتنة فى أصل اللغة ، فهو : الاختبار والامتحان . تقول : فتن الصائغ الذهب يفتنه فتنة ، إذا أدخله النار ليعرف جودته من رداءته . وفعل الفتنة فتن يفتن فتنا ، كضرب يضرب ضربا . ثم استعملت الفتنة فيما يجر إليه الاختبار من مكروه . ثم أطلقت بعد ذلك على كل مكروه كالكفر ، والإثم ، والتحريق ، والفضيحة ، والفجور ، وغير ذلك . فكل هذا يسمى فتنة . وقد وردت الفتنة فى القرآن الكريم بهذه المعانى ، قال تعالى : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » . فالمراد بفتنوا هنا : حرقوا المؤمنين ، والمحرقون هم أصحاب الأخدود الذين قص الله علينا خبرهم فى سورة البروج ، وذلك أن بعضهم قد آمن بالله وترك عبادة الأوثان ، فلم يرض ذلك ملك زمانهم ، فحفر لهم فى الأرض حفرا وأوقد فيها النار وألقاهم فيها أحياء وقال تعالى : « وفتناك فتونا » أى اختبرناك اختبارا . وقال تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك » أى يوقعونك فى بلية وشدة فى صرفك عن العمل بما أوحى إليك . وقال تعالى : « ما أنتم عليه بفاتنين » أى بمضلين عن الحق ، الى غير ذلك .

فإذا فشت المنكرات فى أمة من الأمم ، وكثر فيها الفجور ، وهتكت المحرمات ، كان من واجبات الصالحين فيهم أن يقاوموا هذه الشرور بكل ما استطاعوا من بأس وقوة ، فإذا عجزوا عن تقويم المعوج كان حقا عليهم أن يرتحلوا بعيدا عن هذه الشرور والمفاسد كى لا يصيبهم شرها ، أو يعمهم الله بعذاب فيهلكوا مع المفسدين .

وقد يقال : إن هذا ينافى ظاهر القرآن الكريم من أن الله سبحانه وتعالى قد رفع العذاب الدنيوى عن العالم إكراما لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فانه تعالى قال : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وقال تعالى : « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى » . ومعنى هذا أن الله تعالى يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام : لولا أن سبقت كلمتى برفع العذاب عن الناس ،

بعد رسالتك وتأجيله الى أجل مسمى لكان العذاب الذى حاق بالأمم الماضية من الخسف والمسخ والإغراق لازما لا يرفعه عن هؤلاء المجرمين قوة ولا بطش .

والجواب : أن المراد برفع العذاب عن الناس : رفع عذاب الاستئصال والإبادة . أما تعذيبهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات ، وإذاقة بعضهم بأس بعض ، فذلك غير مرفوع عن الناس الذين طغت عليهم شهواتهم ففسدت أخلاقهم . على أن الله تعالى لم يبين لنا الأجل المسمى ؛ وما يدرينا أنه قد انتهى ذلك الأجل ، وأن الناس إذا لم ينتهوا عن الفواحش ويكفوا عن الموبقات والفضائح ، ويجعلوا رائدهم فى أعمالهم الصدق والعدل ، فإنهم بذلك يعرضون أنفسهم لسخط الله وعقابه الذى كان يعاقب به الأمم الماضية ؟ إن ذلك ممكن لا شك فيه . فعلى الناس أن يتدبروا فى ذلك ، ويتعاونوا على إزالة الموبقات والمفاسد من بينهم ، وأن يعفوا عن المظالم التى تذهب بالضعاف ، وأن يتذكروا دائما أنهم مهددون بغضب إله منتقم عادل لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . فإذا لم ينتهوا فإن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون .

(٣) مما لا شك فيه أن الحديث الذى معنا والأحاديث التى وردت بمعناه ، تدل على أن العزلة إنما تكون فى حالة الفوضى وانتهاك حرمات الدين ، وطغيان سيل الشهوات على الناس بحيث لا يستطاع دفع شىء منها . أما إذا قدر المرء على إزالة المنكر ، وقدر على هداية الناس بقلمه أو لسانه أو جاهه ، فإن الاختلاط أفضل ، بل يكون الاختلاط فى هذه الحالة لازما فى نظر الدين ؛ لأنه يكون من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد أمر الله المسلمين به فى كتابه الكريم ، قال تعالى : « ولْتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . فالقادرون على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يجب عليهم أن يخالطوا الناس ، ويبذلوا قصارى جهدهم فى أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . فإذا لم يفعلوا حق عليهم غضب الله وسخطه . قال تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصَوْا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

ولقد وعد الله سبحانه الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وعدا كريما ، وأعد لهم جزاء حسنا ، بل قد أخبر سبحانه فى كتابه العزيز بانه قد أنجى الآمرين بالمعروف من العذاب الذى حاق بأمتهم ، قال تعالى : « فأنجينا الذين ينهَوْن عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بَئِيس بما كانوا يفسقون » .

فانظر كيف أخبر الله تعالى أن هؤلاء الذين أهملوا ذلك الواجب المقدس ، وتركوا أشرارهم يأتون المنكر بدون أن يقاوموهم ، قد استحقوا لعنته وطردهم من رحمته كما يستحقها الكافرون ،

وذلك منتهى ماتصل إليه عقوبة العاصين؛ وفيه عظة بالغة وزجر شديد للقاعدين من المسلمين عن أداء ذلك الواجب المقدس الذى جعلهم الله بالقيام به خير أمة أخرجت للناس ، فكيف يرضون أن يكونوا ملعونين بتركه ؟ وكيف تطمئن أنفسهم الى شيوع الفاحشة بينهم وهم راضون ؟ ألا يخافون أن يحيق بهم ما حاق بالأمم السابقة ؟ لا ريب فى أن الأمر خطير ، وأن الناس عن دينهم غافلون . ولا يقف النهى عن المنكر عند حد من الحدود ، فكل أوامر الدين ونواهيه إذا انتهكت حرماتها فإنه يجب على القادرين على الأمر بالمعروف أن يعالجوا إزالتها بكل ما يستطيعون .

أما ماذكره صاحب إحياء العلوم من أن بعض السلف الصالح كان يرى العزلة أفضل من الاختلاط ، فذلك إنما يناسب حال زمانه ، حيث كان الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر كثيرين . فإذا اعتزل أحد الناس قام غيره بذلك الواجب المقدس .

ولقد أمر الدين الاسلامى المسلمين بالاتحاد وعدم الفرقة ، قال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه » . فيجب عليهم جميعا أن يتحدوا ، ويتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ، ويقوموا بوجباتهم الدينية والخلقية . ومن أول واجباتهم التضامن والاتحاد ، والجهاد فى سبيل الله ، والذود عن الكرامة والشرف ، ونبذ الشهوات الفاسدة ، وترك التبذير والإسراف ، والحرص على كل ما يصون أوطانهم . أما الحديث الذى معنا فهو يأمر بالعزلة عند فساد الزمان فسادا مطلقا ، بحيث تصبح قواعد الدين مهجورة عند جميع الناس وليس فيهم من يغار على عرضه ودينه ووطنه ، ولعل ذلك الزمن لم يأت بعد .

عبد الرحمن الجزيرى

مكان المال من المجتمع

قال الله تعالى : « إن ترك خيرا الوصية » : عبر عن المال بالخير ، وهو كذلك متى اكتسب من الوجوه المشروعة ، وبذل فى الأغراض الشريفة .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحما ، ويؤدى به أمانة ، ويستغنى به عن خلق ربه » .

وقال الشافعى رحمه الله :

لقد طفت فى شرق البلاد وغربها   وجربت هذا الدهر باليسر والعسر
فلم أر بعد الدين خيرا من الغنى   ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر

دراسات في القرآن الكريم

— ٣ —

شبه قد ترد على القارىء

نعم قد يكون مما لا بد منه أن تتوافد الى نفس الناظر فيما أسلفنا من بحث فى الآية الكريمة تلك الشبه التى سنوردها :

فلقائل أن يقول : إنه قد انفهم مما تقدم أن الداعى للتذكير بالعهد المشار إليه فى الآية السابقة على التى نحن بصدد شرحها ، هو أن الوفاء به والعمل بمقتضاه يؤدى الى الإذعان برسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن ما هو الداعى للتذكير بعهد إن وفوا به فانما يقتضى الاعتراف بربوبية الله وانفراده تعالى بها دون أن يكون له فى ذلك شريك ؛ ولا صلة له باذعانهم برسالة سيدنا محمد خاتم النبيين ، وبنو إسرائيل معترفون بربوبية الله الخالق العظيم ؟

وإنا لدفع هذه الشبهة نقول : أولا : أن التذكير بهذا العهد ليس خاصا ببنى إسرائيل ، بل هو تذكير للناس كافة على اختلاف نحلهم وأجناسهم ؛ وظاهر أن فى الناس المؤمن به والكافر ؛ وعلى ذلك يكون التذكير بهذا تذكيرا بالعام بعد التذكير بالخاص ، كالزام لبنى إسرائيل ، لما أن ما هم عليه من جحد لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإعراض عنها ، ماس لهذا العهد وموهنه .

وثانيا : فإن بنى إسرائيل قد كانوا على عقائد وأحوال تتنافى مع الاعتراف بالربوبية ، ومع قدرهم لله حق قدره فإنهم لو أذعنوا بالربوبية صحيح الإذعان ، وقدروا الله حق القدر لما قالوا عزيرا بن الله ، وفى ذلك جهل بالله أى جهل ، ومساس بقدسه أى مساس ؛ ولو قدروا الله حق قدره لذكروا سوابق نعمه عليهم وعلى الناس أجمعين ؛ تلك النعم التى من أجلها تقفيته الرسل بعضهم ببعض لتجديد هداية البشر وإصلاح ما قد يعترى أصول الدين من إفساد أو توهين ، وما قد يطرأ على مبادئه من تحريف أو تشويه ، فما كانوا يمانعون فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل بعد ما أمسى العالم متخبطا فى ظلام من الفوضى حالك ، وغدا البشر فى ثنايا موجات من الشر متلاطمة . نعم لو قدروا الله حق قدره ما جرءوا على تكذيب الرسول محمد وهم يعلمون صدق رسالته ، وكانوا يتوقعونها من حين لآخر ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، لما فى ذلك من الجرأة على الله ، والاستهانة بوعيده ، الى غير ذلك مما يتنافى مع الوفاء بذلك العهد ،

ومما لو تخلوا عنه لأدى بهم الى الإيمان بمحمد والإذعان برسالته . وبهذا تدرك فى وضوح ما للتذكير بهـذا العهد من صلة بالغرض الذى يتصل به العهد الأول ، كما تدرك ما للتذكير به من إفحام لهم وإلزام .

هذا ، ولقائل أيضا أن يقول : إذا كان الله قد بين فى كتابه المجيد أنه لا تنقطع حجة الناس عليه تعالى إلا أن يرسل اليهم رسلا يبشرون وينذرون ، ويذكرون ويرشدون ، فكيف يعتبر ما أودعه فيهم من عقول تفهم ، وما أودعه فى الكائنات من دلائل وآيات تنفهم ، عهداً عليهم وحجة تلزمهم ، يثابون إن هم بها وفوا ، ويعاقبون إن هم بها أخلوا ؟

وإنا دفعا لذلك نقول : إنه قد كان يصح أن يتجه هذا السؤال لو أن الله لم يكن قد أرسل الى عباده رسلا ؛ أما وقد أرسل اليهم رسله يذكرونهم بآيات الله ، ويدعونهم الى النظر فى السماء والأرض وما بينهما ، ليدركوا ما فى ذلك من دلائل ربوبيته ، وشواهد وحدانيته ، وآثار قدرته وحكمته ؛ أما وقد فعل ذلك ، فلم يبق محل لتلك الشبهة .

بقى أنه قد يستدعى ذلك سؤالا آخر ، فلقائل أن يقول : هل يكفى فى قطع الحجة على الله وحساب الناس بمقتضى هذا العهد ، أن يرسل اليهم رسولا واحدا ، أو أن الحجة لا تنقطع والعهد لا حساب عليه حتى يتتابع إرسال الرسل ، فيكون فى كل فترة من الزمن رسول يجدد للناس أمر دينهم ، ويوقظهم من سبات قد يكون غشيهم ؟

وإنا لدفع هذه الشبهة نقول : إن الذى يتضح من مجموع ما فى ذلك من بحوث وأفكار ، هو أن المدار فى وجوب الاعتراف بالربوبية ومعرفة الله تعالى والمؤاخذة على اتخاذ رب سواه ، هو أن يتوفر لدى الشخص أحد أمرين :

(الأول) أن تبلغه دعوة رسول الى توحيد الله وإفراده بالعبادة والإجلال ، بغض النظر بعد ذلك عن أن يكون الله تعالى قد أرسل رسلا كثيرين ، أو أرسل رسولا واحدا ، ما دامت دعوته قد وصلت على أى وجه من وجوه بلوغها إياه .

(الثانى) أن يهيب بعقل المرء داع من نفسه الى النظر والتفكير فى شأن الصانع ، ثم يدفعه ذلك الى النظر بالفعل . ومتى توفر للانسان أحد هذين الأمرين ثم هو بعد ذلك يكون قد أهمل النظر ولم يصل الى حد التعرف بالله والاعتراف بربوبيته ، ونظر ثم تأدى بالنظر الى اتخاذ غير الله ربا من كوكب أو شىء آخر ، فإنه يكون بذلك مؤاخذا بمقتضى هـذا العهد إن هو لم يأخذ به ، ومثابا إن هو وفى بمقتضاه .

وعلى هـذا فقول بعض العلماء : إن أهل الفترة ناجون ، لابد أن نسائلهم فيه ، فإن هم أرادوا بأهل الفترة من لم تبلغهم دعوة رسول من الرسل ، ولم يصادفهم من الشئون والحوادث ما أثار عقولهم نحو النظر وبعثها الى التفكير ، كانت نجاتهم عامة بالقياس الى جميع التكاليف ،

سواء منها الأصول الاعتقادية مما يتعلق بما يجب للصانع الحكيم ، وما يتعلق بالفروع العملية من واجب ومحظور .

وإن هم أرادوا بهم من بلغتهم دعوة رسول دون أن يواجههم بتفاصيل شريعته ، أو تحركت فى نفوسهم دواعى النظر ودفعتهم الى الاعتراف بالصانع الحكيم ، والخالق القدير ، والرب المنعم ، كانت نجاتهم بالنسبة الى الفروع العملية خاصة ، على معنى أنهم لا يؤاخذون بشربهم الخمر ، أو تركهم الصدقة ، مثلا .

ويرى الإمام الأعظم أبو حنيفة أن النظر واجب على كل إنسان وإن لم تبلغه دعوة رسول من الرسل ، ولا يشترط ما اشترطناه من أن يصادف الإنسانَ حادث من الحوادث التى تحرك فيه الداعى الى النظر والتفكير ، بل يرى أن مجرد وجود الانسان وأمام عينيه السموات والأرض ، وأمامه نفسه ، وما فى ذلك من آيات وشواهد على وجود الصانع الحكيم ، كاف فى وجوب النظر .

غير أن الإمام يرى ، مع إيجابه النظر على كل إنسان وإن لم يتوفر لديه أحد الأمرين المتقدمين أنه إذا أفضى بالناظر نظره الى عدم الاعتراف بالصانع ، يكون غير مؤاخذ مادام قد فعل ما وجب عليه ، واجتهاده هو الذى أدى به الى اعتقاد غير صحيح .

إلا أن ما نعرفه لذلك الإمام العظيم من بُعد نظر ، ورسوخ فى علم ، يحتم علينا أن نحمل هذا على غير الظاهر منه ؛ فلعل مراده من قوله « إنه غير مؤاخذ إن أدى بالمرء اجتهاده الى عدم الاعتقاد بالربوبية » إنما هو الفرض والتقدير ، إذ مثل الإمام أول من يعلم أن آيات الله فى أكوانه واضحة جلية لا يمكن أن يؤدى النظر فيها إلا إلى معرفة الله والاعتراف بربوبيته ؟

حامد محيسن

الكرم والتبذير

قال الله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » . « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا »

وقال على رضى الله عنه : كن سمحا ولا تكن مبذرا ، وكن مقدرا ولا تكن مقترا .

وقال سقراط : أفضل السيرة طيب الكسب وتقدير الانفاق .

وقال على : لا تستحى من العطاء القليل فإن الحرمان أقل منه .

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامي في مصر

— ٤ —

وصفنا في مقالنا السابق حال الرواية والفتيا في مصر لعهد الصحابة ، وقد كان الى جانب ذلك حركة أخرى تتصل بالفقه اتصالا شديدا ، وربما كانت صورة الفقه فيها أوضح من صورته في غيرها : تلك هي حركة القضاء .

كان أمر القضاء عند المصريين ، قبل الفتح الإسلامي ، منوطا بنواب ماليين أو عسكريين ترسلهم حكومة الروم ، ولم يكن لهم قانون منظم معترف به ، يمكن التحاكم إليه ، والرجوع الى نصوصه ، وإنما كان قانونهم ما يراه القاضي ، الذي لم تكن صلته بالبلاد ومعرفته لأحوال أهلها ، بالقدر الذي ينبغي أن يكون فيمن يتولى مثل هذا الشأن .

فلما فتح المسلمون مصر أنشأ لهم عمرو المحاكم النظامية ، وقسمها الى مجالس دائمة وزمنية ، مؤلفة من أعضاء من الأهالين ذوي نزاهة واستقامة ، وبصر بأحوال البلاد ، وجعل للمتقاضين حق استئناف الأحكام لتنقض أو تبرم (١) .

أما المسلمون فكان لهم قضاء خاص لا تجري أحكامه إلا عليهم ، فكان لأهل البلاد قضاؤهم الخاص ، وللمسلمين قضاؤهم الخاص ، وكان الخصوم من القبط يلجئون أحيانا الى قضاة المسلمين مرتضين أحكامهم ، فيحكم القاضي المسلم بينهم ، ويحكّم عرفهم وأحوالهم ، ويقبل شهادتهم .

وأول قاض إسلامي في مصر ، هو كعب بن ضنّة ، وهو ممن شهد فتح مصر ، وكان حكما في الجاهلية (٢) :

كتب أمير المؤمنين عمر الى عمرو بن العاص أن يجعل كعب بن ضنّة على القضاء ، فامتنع كعب من ذلك ، وقال : والله لاينجيه الله من أمر الجاهلية ، وما كان فيها من الهلاك ، ثم يعود أبدا ! (يقصد أنه تولى هذا الأمر في الجاهلية ، فلا يحب أن يتولاه في الاسلام تورعا) . فقال له عمرو : لا بد من السمع والطاعة لأمر أمير المؤمنين ، فاقض بين الناس حتى أكتب اليه . فقضى كعب حتى شاور فيه عمرو أمير المؤمنين ، فأعفاه بعد شهرين .

(١) تاريخ مصر لجورجي زيدان ص ٩٢

(٢) تاريخ الولاة والقضاة للكندي ص ٣٠١ وما بعدها .

ثم تولى القضاء بعده قيس بن أبى العاص من قِبل أمير المؤمنين عمر ، ثم ابنه عثمان بن قيس الذى استمر قاضيا حتى مات بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولم يقم بمصر بعد ذلك قاض حتى قام معاوية ، فولى سليم بن عِتْر ، وأمره بالنظر فى الجراح ، وأن يرفع ذلك الى صاحب الديوان ، فكان الرجل إذا أصيب بجرح أتى الى القاضى ، وأحضر بينته على الذى جرحه ، فيكتب القاضى بذلك الجرح ديته على عاقلة الجارح ، ويرفعها الى صاحب الديوان ، فإذا حضر العطاء اقتُصّ من أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح ، وينجم ذلك فى ثلاث سنين .

ويظهر أن اختصاص القاضى قبل ذلك لم يكن يشمل هذا النوع من الأقضية ، فقد رووا أن سليم بن عِتر هذا هو أول قاض نظر فى الجراح ، وحكم فيها . ولعل ذلك كان الى الولاة والحكام الإداريين إلحاقا بسلطة التنفيذ (١) .

ويظهر أنه كان بجانب القاضى من يبيّن وصف الجناية ، ويحددها ؛ وذلك أشبه بما نعرفه الآن من نظام الطب الشرعى الذى يدخل فى اختصاصه تكييف الإصابة وتحديد الجراح ، فكان القاضى يعتمد على هذا التحديد ، ويقدر دية الجراح على أساسه . قال زيد بن بشر : أدركت رجلا فى بيت المال إذا شُجّ الرجل أو جُرح ، بَعث به القاضى الى ذلك الرجل ، فيقول : هذه مُوَضِّحة (٢) وهذه مُنَقِّلة (٣) ، وهذه كذا ، وهذه كذا ، فيكتب القاضى بدية ذلك الجرح . . . قال زيد : وكان على ذلك الرجل أرزاق جارية .

ومما حفظ عن سليم بن عتر أيضا أنه كان أول من سجل قضاءه بالكتابة ، قال ابن حجيرة: اختُصم الى سليم بن عتر فى ميراث ، فقضى بين الورثة ، ثم تناكروا ، فعادوا اليه ، فقضى بينهم ، وكتب كتابا بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند ، فكان أول القضاة بمصر سَجَّل سجلا بقضائه .

ومن قضاة مصر الذين اشتهروا برأى خاص فى العهد الأول ، بشير بن النضر المزنى ؛ كان

(١) يقول محمد بك الخضرى فيما كتبه عن القضاء فى الدولة الأموية : « ويظهر لنا أن قضاء القضاة فى عهد الخلفاء الراشدين كان قاصرا على فصل الخصومات المدنية ، أما القصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاة الأمصار » . ويقول ابن خلدون : « إنما كان للقاضى فى عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ، نعم قد يفوض له الخليفة نظر بعض الأمور العامة ، لا باعتبار أنها داخلة فى ولاية القضاء ، ولكن لما يراه فى القاضى من الكفاية للقيام بها » اه . من كتاب تاريخ القضاء فى الاسلام للاستاذ الشيخ عرنوس ص ٢٥

(٢) الموضحة : ما أوضحت عظم الرأس ، أى أظهرته .

(٣) المنقلة : ما ينقل فيها فراش العظم الرقيق ، فوق العظم المعتاد ، ليلتئم الجرح .

يقول فى قوله تعالى : « وعلى الوارث مثل ذلك » : الوارث هو الصبى (١) ، أى عليه فى ماله إذا ورث أباه إرضاع نفسه .

ومنهم عبد الرحمن بن حجيرة ؛ كان يقضى فى الشهود إذا تكافئوا أن يُسهَم بينهم ؛ فإن كان أحد المدعين أكثر شهودا برجلين أو أكثر كان الحق له ، وإذا كانت السلعة بيد أحدهما ، فجاء بشاهد عدل ، كانت له وإن جاء الآخر بأكثر (٢) .

هذه صورة الفقه فى القضاء ؛ وقد قدمنا قبل ذلك صورة الفقه على يد الرواة والمفتين .

وينبغى أن يعلم هنا أمران :

أولهما : أن هذه النواحى من النشاط الفقهى كان لها فى البلاد المصرية مركزان : الفسطاط ، والاسكندرية ، لأن المسلمين لهذا العهد ، لم يكونوا قد اختلطوا بغيرهم من أبناء البلاد ، ولا توزعوا فى القرى والأقاليم . وفى ذلك يقول المقريزى : « إن الديار المصرية لما افتتحها المسلمون ، كانت خاصة بالقبط والروم ، مشحونة بهم ، ونزل الصحابة رضى الله عنهم من أرض مصر فى موضع الفسطاط ، وبالاسكندرية ، وتركوا سائر قرى مصر بأيدى القبط ، ولم يسكن أحد من المسلمين بالقرى . . . ولم ينتشر المسلمون بالنواحى إلا بعد عصر الصحابة والتابعين . . . الخ » .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وما ذكره المقريزى هو الغالب الكثير .

الثانى : أن صلة الفقه فى جميع الأمصار بالفقه فى مركز الخلافة كانت وثيقة ، فان الأمراء والحكام ، والقضاة ، كانوا غالبا يعينون من قبل الخليفة ، وكانت عقليتهم الفقهية متشابهة أو متقاربة الى حد بعيد ، وكثيرا ما كانوا يتصلون بالخليفة طالبين رأيه فى قضية من القضايا العامة أو الخاصة ، فتارة يأتيهم الرأى ، وتارة يفوضهم الخليفة فى العمل بما يرون .

---

(١) اختلف العلماء فى المراد بالوارث فى قوله تعالى : « وعلى الوارث مثل ذلك » : فقال قتادة والسدّى وعمر بن الخطاب : هو وارث الصبى أن لو مات . وقال غيرهم : الوارث هو الصبى نفسه ، وتأولوا قوله « وعلى الوارث » المولود ، مثل ما على المولود له . وكان محمد ابن جرير يختار هذا القول . وحكى القرطبى فى تفسيره أن ممن قال هذا القول « بشر بن نصر » . ولا يبعد أن يكون محرفا عن « بشير بن النضر » الذى هنا .

(٢) هذا كله اجتهاد من القاضى ، مرجعه الأخذ بالقرائن ، وشواهد الأحوال ، وترجيح ما يغلب به الظن . قال ابن القيم فى كتابه « الطرق الحكمية ، فى السياسة الشرعية » : للحاكم أن يحكم بالقرعة ، ويحكم بشاهد الحال ، وبشهادة الواحد إذا علم صدقه من غير يمين . « راجع ص ٧١ ، ٧٥ من الكتاب » .

الخلاصة :

بعد هذا يمكننا أن نلخص ما تقدم عن الفقه المصرى ، لعهد الصحابة رضى الله عنهم ، فيما يلى :

(١) كان الفقه يستمد أحكامه من الرواية ، والفتيا ، والقضاء .

(٢) لم يكن للرواية أثر بعيد فى الفقه ، وإنما كان الأثر البعيد للقضاء ، ثم للفتيا .

(٣) لم يأخذ الفقه فى هذا العهد طابعا مصريا خاصا ، وإنما كان تابعا فى رجاله ، وأحكامه ، غالبا ، للفقه فى مركز الخلافة .

(٤) لم ينتشر الفقه الاسلامى فى جميع أنحاء البلاد ، وإنما اقتصر غالبا على المراكز التى كان بها المسلمون ، فلم يخرج عن كونه فقها خاصا « بالجالية الاسلامية » إلا قليلا .

(٥) يمكن أن تعد هذه الحلقة فى سلسلة تاريخ الفقه المصرى ، حلقة التمهيد ، والإعداد ، لما جاء بعد ذلك من العهود ؟

« يتبع »

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة



حكمة الشورى

قال الله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » .

وقال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار » .

وقال فيلسوف : لا رأى لمن تفرد برأيه .

وقال المأمون : إذا أنكرت من عقلك شيئا فاقدحه بعقل .

وقيل : الرأى مرآة العقل ، فمن أردت أن ترى صورة عقله فاستشره .

وقال حكيم : اجعل سرك الى واحد ، ومشورتك الى ألف .

وقال عبد الملك بن مروان : لأن أخطئ وقد استشرت ، أحب الى من أن أصيب وقد استبددت .

قال الحسن البصرى : الناس ثلاثة : فرجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل ؛ فأما الرجل فذو الرأى والمشورة ؛ وأما نصف الرجل فالذى له رأى ولا يشاور ؛ وأما الذى ليس برجل لا رأى له ولا يشاور .

باب الأسئلة والفتاوى

فائدة الاربعاء

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى ملخصه :

اعتاد كثير من الناس أن يقوموا بعمل فائدة تسمى (فائدة الأربعاء) ، فيتوجه من يريد قضاء حاجة من حاجاته أو تفريج كربة ، فى يوم الأربعاء قبل الظهر بساعة تقريبا ، الى ضريح سيدى عبد الله القرشى بقنا ويقرأ سورة « يس » مرة أو ثلاث مرات بنية قضاء الحاجة ، ثم يخرج متجها الى ضريح سيدى عبد الرحيم القنوى ، ويصلى بين الضريحين ركعتين وهو حاسر الرأس ، ثم يمسك عمامته بيده وحذاءه تحت إبطه ويتوجه الى ضريح سيدى عبد الرحيم القنوى على هذه الحالة ، ويدعو بدعاء خاص يتوسل فيه بالأنبياء جميعا وبسيدنا آدم وحواء وبالسيد عبد الرحيم القنوى أن تقضى حاجته ؛ ويعتقدون أن هذه الفائدة على هذا الوجه مرجوة القبول ، ومروية عن السيد عبد الرحيم القنوى . فما حكم الشرع فى ذلك ؟

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الجواب :

هذه الفائدة — وإن احتوت على صلاة وقراءة قرآن ودعاء — قد حُدد لها ولأجزائها التى تركبت منها زمان ومكان ، والتزمت فيها كيفية معينة : يتجه صاحب الحاجة الى ضريح معين ويقرأ فيه سورة « يس » بالنية التى يريدها ، ثم يمشى فى طريق ضريح آخر حتى يصل الى مكان مخصوص بين الضريحين فيصلى فيه ركعتين وهو حاسر الرأس ، ثم يمسك عمامته بإحدى يديه وحذاءه تحت إبطه ويتمم شوطه الى الضريح المقصود وهو على هذه الحالة ، ثم يدعو هناك بدعاء خاص يتوسل فيه بالأنبياء وبسيدنا آدم وحواء وصاحب الضريح الثانى ؛ وقد اقترنت هذه العملية فى نفوس الناس باعتقاد أنها إذا أديت على هذا الوجه كانت مرجوة النفع ، وإذا لم تؤد على هذا الوجه لم يكن لها الأثر المطلوب .

وهذه العملية ، بما قارنها من هذه العقيدة ، وبما فيها من الترتيب والالتزامات المذكورة ، لم يرد بها كتاب ولا سنة ، ولا يشهد بها أصل صحيح ، وذلك فضلا عما يصحبها من مظهر لا يتفق وجلال الدين وروعة العبادة ؛ فهى بدعة منكرة .

وإن الابتداع فى الدين كما يكون بإحداث عبادة لا أصل لها ، يكون بتحديد زمان أو مكان ، أو كيفية للعبادة التى شرع أصلها ، فما جعل الشارع له كيفية خاصة أو حدد له زمانا

أو مكانا كصلاة الجمعة والاستسقاء والحج ، وجب اتباعه فيما حدده ؛ وما لم يحدد له شيئا من ذلك كالنوافل المطلقة كان التحديد فيه ابتداعا وإحداثا فى الدين لا يصح عمله ، ولا ينبغى اعتقاده .

أما قراءة القرآن وصلاة النافلة والتضرع الى الله فى المهمات والكرب ، من غير التزام شىء مما ذكر ، ومع مراعاة الآداب الشرعية ، فهى أمور ندب اليها الشرع الشريف ، وصحت فيها الأحاديث .

واللجنة تنصح للمسلمين أن يلتزموا فى عقائدهم وعباداتهم وتضرعاتهم الى الله حدود ما شرع الله ، وألا يزيدوا من عند أنفسهم شيئا من كيفية أو التزام زمان أو مكان ، فإن ذلك أسلم لدينهم ، وأبعد عن مقت الله وغضبه .

« تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » . والله أعلم .

* * *

خدمة المسلم غير المسلم

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

هل هناك أى كراهية فى أن يستخدم المسلم للنصارى ؟

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الجواب :

يرى أبو حنيفة رحمه الله أنه يجوز للمسلم أن يكون أجيرا لغير المسلم ، وأن يعمل له بنفسه أو بدابته ، بأجر معين ، إلا إذا كان ذات العمل مما يحرمه الدين الاسلامى فإنه يكون حينئذ حراما .

واللجنة تميل الى هذا الرأى توسعة على الناس ورفقا بهم ، وترى مع هذا أن الأولى بالمسلم والأفضل له أن يسلك طريقا يتكسب منه سوى خدمة غير المسلمين إذا تيسر له ذلك . والله أعلم .

* * *

طعام أهل الكتاب

الجبنة الرومى . السمك المملح . اللحمة المحفوظة .

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

الرجا الإجابة عن أكل وبيع الأصناف المبينة أدناه حلال أم حرام على مذهب الامام الشافعى :

١ — الجبنة الرومى .

٢ — السمك المملح (الفسيخ)

٣ — اللحمة التى تستورد من الخارج داخل علب صفيح ، وتسمى باللغة الانجليزية كورنابيف ، لأن بعض الناس يزعمون أنها تذبح على الطريقة الغير الشرعية ، والبعض الآخر يقول عكس ذلك .

يوسف عفيفى

الجواب :

طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين لقوله تعالى : « أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » .

ولكن إذا تحققنا أن بعض الأطعمة عمل مما لا يحل لنا فى شرعنا ، كما إذا عمل الطعام من ميتة أو من لحم خنزير ، فانه يكون حراما علينا ولو أكله أهل الكتاب .

أما السمك المملح فهو حلال من أى نوع كان : رنجة ، ملوحة ، فسيخ ، بكلاه ، نشوقة ، الى غير ذلك من الأصناف . والله أعلم .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

***

الحيل لا يقرها الشرع

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى ملخصه :

رجل طلق زوجته ثلاثا الواحدة بعد الأخرى ، ثم عقد عليها بعد ذلك على مذهب الشافعى طبقا لما افتى به .

وبعد ذلك بمدة قال لها فى يوم من الأيام : اعلمى أنه إن وقع عليك منى يمين طلاق تكونى محرمة ، وإن رددتك تكونى محرمة ، وإن رددتك تكونى محرمة ، وكان يكرر هذا الكلام دائما فى أغلب الأحايين ، وهو يصمم ويجزم بالتنفيذ لو وقع اليمين .

وفى يوم من الأيام قال لها : أنت طالق ، فهل هذا اليمين يحرمها عليه بالنسبة لما سبق أن قاله ؟ وإذا كانت الاجابة بالسلب أى أنها لا تحرم (ولو أنه مصمم أن يفعل) فهل تحرم عليه لو ردها بالنسبة لما قاله (وكان مصمما أن يفعل) ؟ وهل لها رد ، أى لها طريقة شرعية لرجوعها الى زوجها ؟ وما هو طريق ردها ؟

أحمد السيد زيد

الجواب :

يظهر أن هذا المستفتى أفتاه بعض الشافعية بفساد العقد الأول بناء على عدم استيفائه بعض الشروط التى يشترطها الشافعية كعدالة الشهود والولى، ورتب على ذلك أن الطلاق الثالث الذى أوقعه متفرقا لا يلزم لأنه أوقعه على غير الزوجة ، وبذلك أباح له أن يعقد عليها من جديد .

ولكن التصرف فى المسألة على هذا الوجه باطل لا ينطبق على الشرع الشريف ، لأن العقد الأول قد قلد فيه المتعاقدان مذهب الإمام أبى حنيفة كما هو الشأن فى عقود الزواج فى مصر، وهو صحيح على هذا المذهب ؛ وإذن يكون صحيحا محترما فى سائر المذاهب ، وتترتب عليه جميع الآثار الشرعية ، فيكون طلاقه لهذه الزوجة ثلاثا متفرقات واقعا عليها، قاطعا لعصمتها ، وتكون محرمة عليه حتى تنكح زوجا غيره .

وبناء على ذلك تقرر اللجنة أن العقد الجديد لا يرى أحد من الأئمة صحته ، الشافعية وغيرهم فى ذلك سواء ، وتنصح اللجنة جمهرة المسلمين أن يتجنبوا فى دينهم مثل هذه الحيل التى لا تتفق والشرع الشريف ، والتى تجعل أحكام الدين ألعوبة فى يد المحتالين . والله أعلم

محمد عبد اللطيف الفحام

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

طرف من كلام العارفين

قال على رضى الله عنه : إن العقل لاقامة رسم العبودية ، لا لإدراك الربوبية .

وقال : كل ما يتصور فى الأوهام فالله بخلافه .

وقيل إن رجلا سأله قائلا : هل رأيت ربك ؟ فقال : أفأعبد ما لا أرى ؟ فقال الرجل : كيف تراه ؟ فأجابه : لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان .

وسئل صوفى عن الدليل على الله تعالى ، فقال : أغنى الصباح عن المصباح .

وعن ابن مسعود وقد رفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم : ليس الجماعة بكثرة الناس ، من كان معه الحق فهو الجماعة وإن كان وحده .

وقال سفيان الثورى : الجماعة العالِم ولو على رأس جبل .

وقال أيضا : إذا رأيت رجلا يحب أن يؤَم فأخره .

الكلام والمتكلمون

— ٦ —

المعـــتزلة

تتمة الحديث عن آرائهم :

أسلفنا فى الفصل السابق الأصول الخمسة التى اتفق عليها المعتزلة وما تفرع منها من مشاكل هامة ؛ أما بعد ذلك فقد اختلفوا فيما بينهم اختلافات شتى ، بعضها له نصيب كبير أو صغير من القيمة العلمية ، والبعض الآخر قد بلغ من السُّخْف حدا مضحكا .

فمن القسم الأول مثلا قول الفرقة الثمامية : « والعالم فعل الله بطبعه » ، أوقول الكعبية : « فِعْلُ الرب واقع بغير إرادته » ؛ إذ أن هذين الرأيين متأثران بالفكرة الفلسفية القائلة بعِلِّيَّةِ البارى للعالم دون اختيار منه لوجوده أو لعدمه ، وأن الصدور عن المبدع الأول طبيعة فيه لا يملك هو نفسه تغييرها ولا تصييرها قاحلة ، ولا يستطيع أن يخضع الموجودات لإرادته (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) ، لأنها معلولات وجدت علتها كاملة ، فاستحال تخلفها على أى حال .

ونحن لم نعد بعد فى حاجة الى مناقشة هذا الرأى ، إذ أننا أسلفنا مناقشته بالبرهان فى فصول نشرناها فى هذه المجلة حين عرضنا لفلاسفة الاسلام ، فليرجع إليها من شاء .

وكذلك تأثر هذان الرأيان بالفكرة الإغريقية الأخرى القائلة بأن الفرد يُوَلِّد الفرد بطبع فيه لا يملك أحد تأخيره . وقد قال بها أرسطو وألح عليها فى أكثر من موضع من كتبه ، معلنا أن الكون والفساد متعاقبان على الموجودات تعاقبا آليا متى تحققت شروطه الطبيعية وقع لا محالة . وبهذا كان الوالد علة أساسية للولد . وقد نُقل هذا الرأى ضمن ما نقل من الآراء الفلسفية الى العربية ، فتأثر به المعتزلة وفلاسفة الاسلام . وقد ظهر بوضوح لا يعرف المواربة فى فلسفة ابن رشد حيث جزم بأنه هو وحده الصحيح ، وقرر أن الجوهر السابق هو مانح الوجود للجوهر اللاحق دون احتياج الى واهب صور أجنبى ، أى أن كل كائن يولد شبيهه دون افتقار الى فاعل منفصل ، وذلك لأن الجسم المشتمل على صورة فى موضوع ، يمكن بوساطة قواه الإيجابية أن يحول المادة الى الحالة التى يجب أن تكون عليها لكى تتقبل الصورة الجديدة ، وأن يولد الصورة فى هذه المادة المتحولة . وإذاً ، فكون الموجودات ، هو متعاقب على فساد ما قبلها بطريقة ناموسية لا تتخلف ألبتة .

ومنها أيضا قول النظامية : « إن الله خلق العالم دفعة ، وإنما التقدم والتأخر فى الظهور والـكمون » . وهذا الرأى متأثر كذلك بالفـكرة الإغريقية التى تقول : « إن جميع أشخاص العالم كامنة فى هيولاه ، وإن ظهور هذه الأشخاص ليس إبداعا ، وإنما هو بروز بعد الـكمون أو انتقال من القوة الى الفعل » ، لأن كل جزء من المـادة مشتمل على جميع صور الأشخاص التى يتعاقب بعضها على بعض من هـذا الجزء . ففى قطعة الشمع مثلا : صور المثلث والمربع والمستدير وكل ما يمـكن أن يصنع منها كامنة فيهـا . وإذاً ، فوجود المـادة الأولى يعتـبر وجودا للعالم كله دفعة واحدة مادامت صوره جميعها كامنة فى هذه المـادة .

أما الآراء السخيفة فمنها غير ما أسلفناه فى ترجمة زعماء المعتزلة قول الحـدبية : « إن كل حيوان مكلف » ؛ أو قول الصالحية « بجواز قيام العـلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر بالميت » . فهذه كلها آراء ليس لها أية قيمة فى ميدان العلم الصحيح .

وكما اختلفت فرق المعتزلة فى النظريات العلمية ، اختلفت فى الآراء السياسية ، ولـكن هذا البحث لا يعنينا الآن .

الجبرية :

الجبر عند الجمهور : هو نفى الفعل عن الفرد ونسبته الى البارى . وعند المعتزلة : هوعدم استقلال الفرد بالفعل . فعلى مقتضى التعريف الأول تـكون الجبرية هى الفرق التى سلبت الأفعال عن بنى الانسان ونسبتها الى الله ، كالجهمية والنجارية والضرارية . وعلى مقتضى الثانى تـكون جميع الفرق التى لم تقل بحرية الفرد جبرية . ولهذا عد المعتزلة جميع الصفاتية جبرية . وأيًّاما كان ، فانه بينما كان المعـتزلة يعلنون أن الفرد يخلق جميع أفعاله الاختيارية ، كانت على الطرف المناقض لهم فرق أخرى تنفى عن الفرد كل اختيـار وفعل ، وتصرح بأنه كالريشة المعلقة فى الهواء تحركه الأقدار كيف شاءت ومتى أرادت دون اختيارمنه ، ولا تسند اليه الأفعال إلا على سبيل التجوز ، فلا يقال : فعل فلان كذا إلا كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى المـاء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيمت السماء وأمطرت ، وأنبتت الأرض وأزهرت. وقد استشهدوا على هـذا الرأى بقول القرآن مثلا : « والله خلقكم وما تعملون » على أن تـكون « ما » مصدرية ويـكون التقـدير : والله خلقكم وعملـكم ؛ وهو جزم بالتسيير وبسلب الإرادة البشرية سلبا تاما ؛ وقوله : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » ، « ليس عليك هداهم ولـكن الله يهدى من يشاء » ، « قـل كل من عند الله » ، « إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء » .

ولا ريب أن جميع هذه الآيات عندهم صريحة فى أن الله هو فاعل كل شىء ، وأن الانسان

ليس إلا آلة مسلوبة الإرادة والفعل ، يُجرى الإله بها ما يشاؤه من أفعال ، كما يجرى الانسان القطع بالسكين والإحراق بالنار دون أن يكون لهاتين الآلتين أدنى تصرف .

ونحن لا ندرى كيف كان هؤلاء القوم يفكرون ، وما معنى التكليف والمسئولية والجزاء عندهم ، بل لماذا هم يحترمون العادل أو الشريف ويحتقرون الظالم أو الوضيع ، مع أنه — لو صح مذهبهم — لما كان للأول فضل فى عدالته وشرفه ، ولا على الثانى ذنب فى ظلمه ووضاعته ، ما دام كلاهما مقهورا على فعله وسلوكه خيرا كان أو شرا ؟ ! ولكن السياسة ، ولحاها الله ، هى أساس الدعاية لهذا الرأى ، لأنه لما قام دعاة العباسيين بشن الغارة على أسلاف الأمويين الذين ساهموا فى قتال أشقائهم من المسلمين إبان الفتنة ، هرع الأمويون الى الارتكان الى القدر المبرم الذى شاء هذا القتال ، وصرحوا بأنه لابد لأولئك المتقاتلين فيما فعلوا ، لأن الأقدار أكرهتهم عليه إكراها . وقد استغل القائلون بهذا الرأى مثيلات الآيات التى أسلفناها هنا . غير أن أنصار الدعاية العباسية قد وقفوا على الطرف المناقض من هذا الرأى ، فزعموا أن الفرد مستقل بفعله كل الاستقلال ، مسئول عنه أدق المسئولية ، كما أبنا ذلك فى مواضعه من الفصول السابقة .

أما فيما عدا هذا الرأى فالجبرية متفقة مع المعتزلة بوجه عام فى أهم ما بقى من الآراء ، مثل نفى الصفات ، وإمكان المعرفة بالعقل وحده ، وعدم إمكان رؤية الله فى الحياة الآخرة ، وما شاكل ذلك مما أسلفنا آراء المعتزلة فيه . وأولى فرقهم : الجهمية ، وهم أتباع جهم بن صفوان . وثانيتها النجارية ، وهم أصحاب الحسين بن محمد النجار . وثالثتها الضرارية ، وهم أنصار ضرار بن عمر .

وهم كالمعتزلة من حيث إن كل فرقة زادت على سالفتها بدعا خاصة بها . وهاك نبذة وجيزة عن كل فرقة منها :

جهم بن صفوان :

هو أبو محرز جهم بن صفوان الترمذى أو السمرقندى ، وهو من موالى بنى راسب ، وقد كان صنيعة بنى أمية يدعو الى جبريتهم المغالية ، ويناضل دعاة خصومهم الذين كانوا ينشرون مبدأ حرية الفرد ، كما أشرنا الى ذلك آنفا .

ولما آذن نجم الأمويين بالأفول ، وكان جهم قد انضم الى حارث بن سريج ذى الراية السوداء ، قتله سالم بن أحوز فى سنة ١٢٨ هـ — ٧٤٥ م .

ومن أبرز آرائه بعد المذهب العام ، جحوده أبدية الجنة والنار ، وتصريحه بأنه لا يصح وصف الله بصفة وصفت بها المخلوقات كسميع وبصير ومتكلم ، لأن فى ذلك مشابهة للحوادث ، وإنما يصح أن يوصف فقط بأنه قادر ، فاعل ، خالق ، لأن هذه الأوصاف لا تطلق

موجود آخر غيره . ومن هـذه الآراء أيضا إثباته علوما حادثة للبارى يوجد كل منها عند وجود المعلوم . وعلل لذلك الرأى بقوله : لأنه لو علم ثم خلق ، أفيبقى علمه على ما كان أو لا يبقى ؟ فإن بقى فهو جهل ، فان العلم بأن سيوجد غير العلم بأن قد وجد . وإن لم يبق فقد تغير والتغير مخلوق وليس بقديم . وإذا ثبت حدوث العلم ، فلا يخلو إما أن يحدث فى ذاته تعالى ، وذلك يؤدى الى التغير فى ذاته ، وأن يكون محلا للحوادث ، وإما أن يحدث فى محل فيكون المحل موصوفا به ، لا البارى تعالى ، فتعين أنه لا محل له ؛ فأثبت علوما حادثة بعدد المعلومات الموجودة (١) .

الحسين بن محمد النجار — وقـد انقسمت فرقته الى عـدة فروع ، منها : البرغوسية ، والزعفرانية ، والمستدركة . ومن أشهر آرائه الخاصة قوله : إن معنى كون الله مريدا أنه غير مكره ولا مغلوب . وتجويزه — بعـد نفيه الرؤية — أن يحول الله القوة التى فى القلب الى العين فتدركه بها .

ضرار بن عمرو ، وحفص الفرد — هما منشئا فرقة الضرارية ، قد اتفقا على معنى كون الله عالما وقادرا هو أنه ليس جاهـلا ولا عاجزا . ولا ريب أن هـذه هى سلوب الفلاسفة التى وصفوا بها البارى تحرجا من التألف الذى يلازم الصفات الإيجابية .

الصفاتية :

لما كان القرآن والحديث قـد وصفا البارى بصفات كالحياة والعـلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والعظمة والجود ، وعزوا إليه ألفاظا هى فى اللغة موضوعة للجوارح الانسانية كالوجه والعين واليد والأنامل والقدم وماشا كل ذلك ، فقد اعتقد السلف من المسلمين بالنوع الأول من الصفات ، فقالوا : إنه عالم بصفة العلم ، مريد بصفة الإرادة ، قادر بصفة القدرة . أما النوع الثانى وهـو الصفات الخبرية ، فقد انقسموا فيها الى ثلاث فرق ، ذهبت الفرقة الأولى الى وجوب الايمان بها دون البحث فيها ، وقالوا : « إن التنزيل نبأنا بأنه ليس كمثله شىء ، فوثقنا بأنه لايشبهه شىء من الحوادث ولا يشبه شيئا منها ، إلا أننا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه مثل قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، ومثل قوله : « خلقت بيدى » ، ومثل قوله : « وجاء ربك » الى غير ذلك . ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها ، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له ، وليس كمثله شىء ، وذلك قد أثبتناه يقينا (٢) » .

وأبرز من عبر عن رأيهم تعبيرا واضحا هو الامام مالك بن أنس ، حيث سئل فى معنى قول

(١) انظر صفحة ٩١ من الجزء الأول من « الملل والنحل » للشهرستانى .

(٢) انظر صفحة ٩٦ من الجزء الاول من كتاب الشهرستانى .

القرآن : «الرحمن على العرش استوى» فقال : «الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

أما الفرقة الثانية فقد رأت تأويل جميع الآيات التى وردت فى الصفات الخبرية .

وأما الفرقة الثالثة فقد جزمت بأخذ جميع الآيات الواردة فى الصفات الخبرية على ظاهرها ، فوقعوا فى التشبيه والتجسيم ، وساروا فيه الى أقصى حدوده ، فزعم بعضهم أن لله جميع الجوارح ماعدا الفرج واللحية . وزعم البعض الآخر أن له شعرا ولحما ودما ، وأن جسمه يزيد عن سطح العرش بمقدار أربعة أصابع من كل جهة ، الى آخر هذا السخف الذى تأباه العقول المتزنة ، بل الفطر السليمة .

وهذه الفرق كلها تسمى بالصفاتية لقولها بوجود الصفات . وقد أطلقت على المعتزلة اسم المعطلة لقولها بنفيها . وقد اعتقدت بالكسب المحدود للفرد فتوسطت بين الطرفين المتعارضين : القائل بالحرية المطلقة ، والقائل بالجبر المطلق ، وأطلقت على نفسها اسم أهل السنة ، ولكن خصومها لم يقروها على احتكارها هذا الاسم دونهم ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

العلم العلم

سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال ، فقال : العلم بالله ، والفقه فى دينه ؛ وكررهما عليه . فقال الرجل : يا رسول الله أسألك عن العمل فتخبرنى عن العلم . فقال له : إن العلم ينفعك معه قليل العمل ، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل .

وقال وهب : ابذل علمك لمن يطلبه ، وادع إليه من لا يطلبه ، وإلا فمثلك مثل من أهدى إليه فاكهة فلم يَطعمها ولم يُطعمها حتى فسدت .

وقال حكيم : قوت الأجسام المطاعم والمشارب ، وقوت العقل الحكمة والعلم .

وقال الزهرى : تعلم سنة خير من عبادة سنتين ، وثمرة الأدب العقل الراجح ، وثمرة العلم العمل الصالح ، وأفضل ما أعطى العبد فى الدنيا الحكمة ، وفى الآخرة الرحمة .

وقال أبو يوسف : مات لى ابن فأمرت رجلا أن يتولى أمر دفنه ، ولم أدع مجلس أبى حنيفة ، خفت أن يفوتنى منه يوم .

نقول: إن هذا هو أعجب مثال للحرص على العلم ، ولكنه ليس بحسن .

في عالم الأدب العربي

الشعوبية وأثرها فى الادب العربى

— ٧ —

طويت بسقوط الدولة الأموية صفحة ملئت بالنخوة العربيـة ، وانقرضت عصور كان يشعر فيها العربى بالسيادة المطلقة ، والأنفة التى لا تحد ، وغـدت تلك المظاهر التى لمحناها فى العصر الأموى أحلاما لذيذة ممتعة إذا استعرضها العربى على مخيلته هلل وكبر ، وما إن يفتح ذراعيه لمعانقة ذلك الأمل ، إذا به قـد زوى وذبل ، لما يرى من حقائق واقعة ، وشواهد ملموسة .

فلقـد جاء العباسيون وقامت دولتهم على أكتاف الفرس ، فـكان طبعيا أن تلهج ألسنة العباسيين جهرة بالمدح والثناء ، وتؤمن قلوبهم من الأعماق بأنهم حسنة من حسنات الفرس ، وثمرة من ثمار جهادهم ؛ بذلك يجاهر داود بن على عم المنصور فيقول : « ياأهل الـكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا » .

ويقول أبوجعفر المنصور : « ياأهل خراسان : أنتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دعوتنا » . وحينما حضرته الوفاة أوصى ابنه قائلا : « وأوصيك بأهـل خراسان خيرا ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتـكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده » .

وكان يقابل ذلك الشعورَ من جانب العباسيين شعورٌ آخر من جانب الفرس ، ولـكنه شعور لا كالشعور السابق ، فلقد تملـكهم الزهو ، وسيطرعليهم فرح الانتصار ، وأحسوا بأنهم بناة ذلك المجد ، ومشيدو أركانه ، وبذلك يعلن أبو مسلم الخراسانى فى إحدى خطبه فيقول : « والله ما اخـترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ، وما زلتم تختارون تيمياً مرة ، وعدويا مرة ، وأمويا مرة ، وأسديا مرة ، وسفيانيا مرة ، ومروانيا مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عنوة وأنتم صاغرون . . . »

ولم يقف شعور الفرس عند هذا الحد، بل طمع أبو مسلم فى الخلافة مما أحقد عليه نفس المنصور فقتله ليسلم من شره، وعند ذلك يقول: «وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكث بنا، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه».

وكل أولئك لم يزعزع مكانة الفرس من نفوس العباسيين، بل ما زال شأنهم يعلو صعدا حتى كان لهم ما فاضت به كتب التاريخ مما لا نقصده فى بحثنا. والذى يعنينا هنا أن نقرر فى غير مواربة ولا التواء، أن المتعصبين على العرب وجدوا تربة خصبة ممرعة الجناب، فراحوا مسرفين فى الذم والقدح، دون أن يصادفوا عنايا يقف من غلوائهم، أو يلقوا عقابا يحد من طغيانهم؛ فنرى بشار بن برد حامل هذا اللواء، يطلق لنفسه العنان ما شاء أن يطلق، ويرفع عقيرته مفاخرا بخراسان طورا، فيقول:

وهجانى معشر كلهمو حمق، دام لهم ذاك الحمق
ليس من جرم ولكن غاظهم شرفى العارض قد سد الأفق
من خراسان وبيتى فى الذرا ولدى المسماة فرعى قد سمق

وطورا آخر يفخر بالعجم فيقول:

ونبئت قوما بهم جنة يقولون من ذا؟ وكنت العلم
ألا أيها السائلى جاهدا ليعرفنى، أنا أنف الكرم
نمت فى الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قريش العجم

ومن عجب أن يقول هذا أمام المهدى وعلى مسمع منه، فلا يعاقبه كما فعل هشام بابن يسار! بل يسأله: «من أى العجم أنت؟ فيقول: من أكثرها فى الفرسان وأشدها على الأقران، أهل طخارستان». وكثيرا ما تبرأ من الولاء العربى ودعا الموالى الى نبذ ولائهم للعرب. فهذا هو صاحب الأغانى يحدث: «أن رجلا من بنى زيد شريف قال لبشار: يابشار: قد أفسدت علينا موالينا، تدعوهم الى الانتفاء منا وترغبهم فى الرجوع الى أصولهم وترك الولاء، وأنت غير زاكى الفرع ولا معروف الأصل! فقال بشار: والله لأصلى أكرم من الذهب، ولفرعى أزكى من عمل الأبرار، وما فى الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه!».

فتلك الجرأة الجريئة التى تشاهدها فى كلام بشار حين يتناول العرب مجرحا ومنقصا، ويكيل لهم بأوفى مكاييل الذم طاعنا وقادحا، على مرأى من خلفاء العباسيين وأمرائهم، دون أن يحرك أحد ساكنا فيضرب على يد الباغى ويأخذ بيد المهضوم كما كان ذلك إبان الحكم الأموى، كل هذا يأخذ بيد الناظر السطحى حتى يقف على موطن الداء، ويلمس تهاون العباسيين الذى لم يقف عند هذه التخوم القريبة، بل تجاوزها فى لجاج الى أعمق وأبعد! وكأنى بالفلك وقد استدار

دورته ، وراجع صفحة من تاريخه القديم ، تاريخ الجاهلية الأولى فى تلك الفترة التى كانوا يتغنون فيها بمفاخر الأنساب ونقاء الأحساب .

وإن الشواهد على ذلك لأكثر من أن تحصى؛ فذلك هو عبد الله بن طاهر ـ وهو فارسى ـ يفتخر بنسبه فى الفرس ، وبأنهم قتلوا الأمين ، فيقول :

أنا من قد تعرف نسبى ... سلفى الغر البهاليل

ويقول : انظر المخلوع كلكله ... وحواليه المقاويل

فثوى والترب مضجعه ... غالَ عنه ملكه غول

قاد جيشا نحو نائلة ... ضاق عنه العرض والطول

من خراسانٍ مُصمصمهم ... كليوث ضمها غيل

فانظر كيف يتغنى ابن طاهر بمجده الموروث عن آبائه من الفرس ، والخليفة عربى من بنى هاشم !

ولئن كان من السائغ أن يفتخر إنسان بنفسه وبجنسه حتى يبلغ السماء مجدا وشرفا ، ويطاول الجوزاء أنفة وعزا ، فلا يسوغ له أن يفخر بملء شدقيه بأن قومه قتلوا الأمين وطوّحوا به عن عرش الخلافة ، والمأمون بين الطرب والإعجاب راض عن كل هذا دون أن تأخذه الغيرة لأخيه ! ! وليس هناك من باعث على كل هذا سوى الحرية المطلقة من كل قيد ، وذلك ما أدى بالعباسيين الى تفلت الأمر من يدهم ، وما غبنهم الفارسيون ولكن كانوا أنفسهم يغبنون . ولا عجب فقد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجين الى حد أنه كان يسمع هجوه بنفسه ويصفح ! !

فمن ذلك ما يروى أن دعبلا حين هجاه بقوله :

أيسومنى المأمون خطة عاجز ... أوَ ما رأى بالأمس رأس محمد

الى أن يقول :

إنى من القوم الذين سيوفهم ... قتلتْ أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

لم يزد على أن قال: « قاتل الله دعبلا ، متى كنت خاملا ، وفى حجر الخلافة ولدت ، وبدرها غذيت ، وفى مهدها ربيت » ! !

بذلك وأمثاله أخذ الفرس ، طليقين من كل عقال ، يمعنون فى تنقيص العرب والحط من شأنهم ، فيرد العرب قولهم بمثله ، وربما كان أفظع وأقذع .

من ذلك قول فارسي :

بهاليل غـرّ من ذؤابة فارس إذا انتسبوا ، لا من عُرينة أو عُكل
هُمو راضة الدنيا وسادة أهلها إذا افتخروا ، لا راضة الشاء والإبل

وهكذا تجد ذلك العصر الذي نتحدث عنه مصدر يمن ومنبع خير للأدب العربي ، وإن كان معول هدم للعرب أنفسهم ؛ وذلك ما ستراه فيما بعد ؟

احمد ابراهيم موسى
تخصص البلاغة والأدب

ملاحظاتنا على هذه المقالة

إننا ننشر هذه المقالة لا لأننا نعتقد بما جاء فيها ، ولـكن لنعقب عليها بما لا بد منه ، فإن التشكيك في إخـلاص بعض العناصر المـكونة للأمة الاسلامية ، يسجل على الاسلام الفشل في تكوينه أمة ائتلافية عالمية ، ويشكك الناس في كل مايجيء عن تلك العناصر المتهمة من دين وفهم ونظر . وماذا أنت قائل إذا علمت أنهم هم الذين تولوا في فجر وجود الاسلام مهمة تأصيل أصوله ، ووضع علومه ، وتفسير كتابه وجمع سنته وتدوين تاريخه ؟

ألا إن المضي في هذه الفتنة الى حدودها المنطقية ، يشن على الاسلام شبهةً يعجز عن شنها عليه خصومه في مدى تاريخه كله ، ويعيد لهذه الأمة النزعة القومية ، وهي ما جاء الاسلام لإزالته ، وبناء رأي جـديد في وحدة البشرية على أنقاضه . فهذا الرأي التجـديدي العالي الشأن الذي انفرد الاسلام بالدعوة إليه ، وهو في الوقت نفسه من أدل الأدلة على إلهيته ، يحاول المتأدبون اليوم انقيادا لشهوة خيالية أن يحطموه ، وهم لا يعلمون أنهم يحطمون معه أقـوى دعامة للاسلام ، يقوم عليها وجوده ، وتبتني عليها صحته ، وتشاد عليها الدعوة إليه في هذا العصر .

لذلك رأينا أن ننشر هـذه المقالة ونتبعها بما نراه مزيلا للبس في هـذه الناحية ، راجين من وراء ذلك الدفاعَ عن الاسلام نفسه ، الذي وضع لتوحيد النوع البشري أقوم الأصول الاجتماعية ، ونجح في ذلك الى حد أن اعتُبر ذلك منه آية خالدة . فنقول :

تمهيد :

أرسل الله خاتم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، كما قال : « وما ارسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ، فآمن به عرب وفرس وترك وديلم وسودان وحبشان وروم الخ الخ ؛ وكان هـذا الأمر انقلابا عالميا ضخما ، لم تـكن تحـلم به الشعوب ، ظهرت آثاره في الأمم ، فأحدثت فيها انتقالات أدبية واجتماعية غـيّرت وجه الأرض من حال الى حال آخر .

وكان من الشعوب التي شاع الاسلام فيها ، الفرس ، وهم قوم كانت لهم قَدَمة في العلوم

والآداب والسياسة ، فسبقوا غيرهم من الشعوب الاسلامية فى النظر والتفكير ، والبحث والتمحيص ، ونبغ منهم أئمة فسروا الكتاب ، وأقطاب حفظوا سنة الرسول ، وأعلام جمعوا لغة العرب ووضعوا علومها وآدابها ، وبرّز رجال آخرون منهم فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى فى كل ما يتصل بالدين والدنيا معا . فلم يشعر سائر المسلمين ومنهم العرب ، وكانوا أشد الناس تمسكا بالنعرة القومية فى جاهليتهم ، بمضض من ذلك ، لأنهم لو كانوا شعروا بذلك لأسقطوا إمامتهم ، وحقروا زعامتهم . ولكن كيف كانوا يسقطون الى هذا الحضيض وقد محا الاسلام من نفوسهم التعويل فى مجتمعهم النموذجي العالمى على الاختلافات الجنسية واللغوية واللونية ؟

ذكر السخاوى فى شرح ألفية الحديث للعراقى أن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى قال للزهرى : « من يسود أهل مكة ؟ قال : عطاء . قال بما سادهم ؟ قال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . قال هشام : نعم من كان ذا ديانة حقت الرياسة له . ثم سأله الخليفة عن اليمن . فقال الزهرى : إمامها طاوس . وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلا كان هشام يسأله : هل هو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول : مولى ، الى أن أتى على ذكر النخعى ، فقال إنه عربى . فقال هشام : الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العربَ ويخطب لهم على المنابر » .

ولما حضرت عمرَ الفاروقَ الوفاة ، أوصى أن يصلى بالناس صهيب وهو الذى صلى عليه بعد وفاته ، وكان يريد أن يصلى عليه على وعثمان فمنعهما ابن عمر احتراما لوصاة أبيه ؛ وصهيب هذا أصله رقيق رومى .

كان كل هذا جريا على المبدأ الاسلامى فى عدم جواز التفرقة بين الأجناس .

مضى الصدر الأول على هذا ، والصدر الأول هو الحال النموذجية التى يجب أن يكون عليها المسلمون فى جميع أدوارهم ، باعتبار أن دينهم عام لجميع الأمم ، وأنهم يؤلفون نواة الأمة العالمية التى يجب أن يكون عليها البشر .

ولكن لما انقضى عهد بنى أمية ، وتوطدت أركان الدولة الاسلامية ، وشرع الناس فى اقتباس ما يحفظ الاجتماع من العلوم والفنون والصناعات الضرورية للعمران ، جاء دور الأدب ، والعربية مجال فسيح له ، فكثر عدد الكتاب والشعراء كثرة لم يوجد مثلها لأية أمة . وهؤلاء كما لا يخفى يجرون وراء كل جديد من المعنى يبتكرونه ، وكل طريف من الموضوعات يخلقونه ، فلم يتركوا مجالا يمكن أن يكون موضوعا لشعرهم ونثرهم إلا جالوا فيه . وكان منها موضوع الشعوبية الذى نحن بصدده . وكيف يعقل أن يفلت منهم هذا الموضوع ، وجرثومته كانت لا تزال حية فى النفوس ، لا بين العرب وغيرهم من الشعوب الأجنبية ، بل بين بعض

العرب وبعضهم الآخر ؟ فقد كانوا يتفاضلون بقبائلهم ، وأشعارُهم غاصة بما نقول . فأى مطلع على تاريخ الأدب لايعرف أن العرب كانوا يضعون من باهلة وسلول وغيرها ؟ ألم يقل السموأل :

وإنا أناس لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

أوَ لم يقل جرير :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ولم يكن العرب وحدهم على هذا ، ولكن كانت عليه جميع الشعوب أيضا . فهل يعقل وقد جاء عهد الأدب فى الاسلام أن لا تثار هذه المسألة بين المتأدبين ، وأن لا يتخذها بعضهم مادة لأشعارهم ، وكثير من الوضاعين موضوعا لمفترياتهم ؟ وهل كنت تحب أن تخلو من هذه الأقاصيص كتب المحاضرات ، وهى تقمش كل ما تجده بدون نقد ولا تمحيص ، وتملأ منه صحفا لتذيعها طُرَفا للقارئين ؟

ولما نشأت فى مصر للادب دولة فى العهد الأخير ، وجدت من كتب المحاضرات موردا عِدًّا فى هذا الموضوع ، فأخذته بحذافيره ولم تسرِ عليه الأسلوب النقدى التمحيصى ، فوقعت فى حبائل تلك الكتب ، وزادت ما فيها صقلا بما اكتسبته من ألمعية الأدب الحديث ، فلم لا يكون موضوع الشعوبية بابا من أبواب الأدب لدى النابتة التى تستمد من حياض أدبائنا البارزين ؟ المقال الذى نعقب عليه هنا مثال حى لما نقول .

مناقشة المقالة التى نحن بسبيلها :

يقول الأستاذ الكاتب : « لقد طويت بسقوط الدولة الأموية صفحة ملئت بالنخوة العربية ، وانقرضت عصور كان يشعر فيها العربى بالسيادة المطلقة !!! الخ الخ » .

يقول هذا ولا ندرى كيف لم ير أن الدولة الأموية نفسها التى يشيد بذكرها ، لم تكن متأثرة بهذه النعرة القومية ، فلم يفرق الناس على عهدها بين العربى والأعجمى ، حتى إنهم لم يمنعوا الأعاجم من السيادة الدينية ، وقد بلغت أوجها على عهدها ، كما يتبين لك ذلك مما قدمناه هنا . فهل نحن أكثر منهم فهما لمعنى النخوة العربية ؟

ولست أدرى كيف يسوغ لمسلم أن يلفظ بكلمة (نخوة عربية أو سيادة عربية) ؟ فهل هى شىء غير نعرة القومية الجاهلية التى نهى الاسلام عن ذكرها ؟ ألم يقل النبى صلى الله عليه وسلم : « قد أذهب الله عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرَها بالآباء ، كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ؟

وقال الأستاذ الكاتب : « جاء العباسيون وقامت دولتهم على أكتاف الفرس ، فكان طبعيا أن تلهج ألسنة العباسيين جهرة بمدحهم والثناء عليهم الخ الخ » ثم استدل على قوله بما فعله

عم المنصور والمنصور نفسه من الإشادة بذكر أهل (خراسان) . فهل غاب عنه أن خراسان ليست إلا إقليما واحدا من أقاليم المملكة الفارسية المترامية الأطراف ، وأن أهلها لايبلغون عشر الأمة الفارسية ، فكيف ساغ له أن يفهم من ثناء العباسيين على أهل خراسان ، ثناءهم على الفرس قاطبة ؟ وهل كانت خراسان في نظر أي مسلم من أهل العصر الأول إلا ولاية إسلامية كنجد واليمامة وتهامة الخ ، وإن كان أهلها فارسيين ؟

ومما يدل على أن شيئا مما تخيله من طغيان النزعة القوميـة للفرس لم يحصل ، أن أبا جعفر المنصور قتل أبا مسلم الخراساني ، وهو أرفع رأس كان في خراسان ، فلم ينتطح فيها من أجله عنزان ؛ أليس ذلك لأن المسألة لم تكن نزعة عصبية يتبارى فيها العرب والفرس ، ولكنها كانت جامعة إسلامية لا ترى للجنسيات فيها موضعا ، وهي المعجزة الخالدة للاسلام الذي يحاول أن يهدمه بعض أهله اليوم (على غير علم منهم) ولا يستطيعون ؟

ومن عجب أن الأستاذ يستدل بشعر بشار على أنه كان يتنقص العرب في الحين الذي يستشهد بقوله :

نمت في الكرام بني عامر فروعي وأصلي قريش العجم

فهو كما ترى يفتخر بولائه لبني عامر ، ويصفهم بالكرم ؛ وفي الوقت نفسه ينقل عن الأغاني (ومؤلفها فارسي) أن رجلا قال لبشار : « أفسدت علينا موالينا تدعوهم الى الانتفاء منا الخ وأنت غير زاكي الفرع ، ولامعروف الأصل » ، فقال له بشار : والله لأصلي أكرم من الذهب ، ولفرعي أزكى من عمل الأبرار ، وما في الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه »

كأن الأستاذ كان يود أن يسب العربي بشارا بقوله : إنه غير زاكي الفرع ، ولا معروف الأصل ، فيقابله بشار بالثناء والشكر ، ليدل بذلك على أنه غير متعصب لجنسه !

على أن بشارا هذا أمر الخليفة المهدي بقتله حين بلغه أنه يميل للزندقة ، فلقي حتفه ، وهو أول من نقل الشعر العربي من سذاجة البداوة ، وأفاض عليه رواء الحضارة .

واستشهد الأستاذ على ما ذهب إليه من طغيان النعرة الفارسية بما قاله عبد الله بن طاهر مباهيا بقومه ، ومتمدحا بأنهم قتلوا الأمين بن الرشيد :

أنا من قد تعرفي نسبي سلفي الغر البهاليل

وقال مفتخرا بقتل الأمين :

فثوى والترب مضجعه غال عنه ملكه غول

فإذا افترضنا أن نسبة هـذا الشعر لعبد الله بن طاهر غير مشكوك فيها ، وأن المأمون

علم بذلك ولم يحرك ساكنا ، وأن دعبلا الشاعر هجاه وافتخر بقومه فلم يكترث له ، وأن فارسيا افتخر بقومه وتنقص العرب بقوله :

هم راضة الدنيا وسادة أهلها إذا افتخروا لا راضة الشاء والابل

إذا افترضنا أن هـذا كله صحيح وليس من وضع الوضاعين ، (وقـد وضعوا آلاف الأحاديث النبوية ، والحكايات الخرافية ، ووضعوا المعلقات ، وزادوا فى اللغة ما ليس فيها) ، أفلا يتجه اللوم فيه الى أمراء المؤمنين أنفسهم ، بل الى الأمة العربيـة بأسرها ، وقد غضت طرفها عنه ، وتركته يتغلغل فى كيانها حتى هدم العرب وأسقطهم ، وأدال للفرس منهم ؟ وهل هو بهذا يريد أن يذم العرب أم يمدحهم ؟

اللهم إن صح هـذا فيكون أول ظـاهرة اجتماعية من نوعها فى تاريخ البشر . ذلك أن تطغى النزعة القومية فى شعب من شعوب أمة ائتلافية كالأمة الاسلامية ، فتتفوق على جميع تلك الشعوب من طريق الخداع وإضمار سوء النية ، لا من طريق فضائلها الذاتية ومميزاتها الشخصية ، ثم يبقى هذا التفوق معترفا به ، ومرضيا عنه ، فى أدوار تاريخها كله الى عهدنا هذا ، حتى يقوم بعض المشتغلين بالأدب منا فينبه اليه ، فلا يأبه بهم أحد ! نعم ، لأنك لو سألت أية جماعة إسلامية فى أية بقعة من الأرض ومن بينهم العرب ، فقلت لهم : من هم سلفـكم الصالح الذين حفظوا القرآن والسنة وآراء الصحابة ودونوها وبوبوها وشرحوها ولقنوها للشيوخ والأئمة ؟ لعدوا لك عشرات من الأسماء فى مقدمتهم : الحسن البصرى وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير وسليمان الأعمش ومحمد بن سيرين ومجاهد وسليمان بن يسار وعطاء وطاوس ويحيى ابن أبى كثير ومكحول وميمون بن مهران والضحاك وزيد بن سالم ومحمد بن المنكدر ونافع وربيعة الرأى وابن أبى الزناد ووُكيع وابن أبى ليلى وسفيان بن عيينة ، الخ الخ ، وكلهم من الفرس أو من شعوب شتى .

هـذا الانحراف الخطير لدى النابتة الأدبية لدينا ، نشأ من خطأ جلل وقع فيه الأديب الكبير الدكتور طه حسين ، ونشره فى كتابه (الشعر الجاهلى) ، فتلقفه طلاب الأدب فى البلاد الشرقية ومضوا فيه قدما لا يلوون على شىء . فقد قال الدكتور المذكور فى كتابه ذلك ما موجزه بألفاظه :

« لم يكد ينتصف القرن الأول للهجرة حتى كان فريق من سبى الفرس قد استعرب وأتقن اللغة ، واستوطن الأقطار العربية ، فأخذ هـذا الشباب الفارسى الناشىء يتكلم لغة العرب ويحاول نظم الشعر ، وتجاوز هذا الى مشاركة العرب فى أغراضهم الأدبية والسياسية ، ولم يكن هؤلاء الموالى مخلصين للعرب حقا ، وإنما كانوا يستغلون هـذه الخصومات السياسية ليعيشوا وليحيوا حياة السادة الأحرار ، ثم ليشفوا ما فى صدورهم من غل ضـد العرب .

ولعلك تلاحظ أن الكثرة المطلقة من العلماء كانوا من العجم الموالى ، وكانوا يستظلون بسلطان الوزراء من الفرس أيضا ، وكانت غايتهم قد استحالت من إثبات سابقة الفرس فى الملك الى ترويج هذا السلطان الذى اكتسبوه أيام بنى العباس ، وإقامة الأدلة على أن الأمر قد رد الى أهله ، وأن العرب الذين حيل بينهم وبين السيادة الفعلية لم يكونوا أهلا لتلك السيادة . الخ » .

نقول :

الذى يستخلص من هـذا الكلام أن هؤلاء الموالى قد عمتهم روح الشر ، فلم يكونوا مخلصين فى عملهم ، فهبوا ينظمون الشعر ويتدخلون فى السياسة ، ويطلبون العلم ليستعيدوا ما كان لقومهم من سيادة على العرب ، وليشفوا ما فى صدورهم من غل عليهم ، وقد نجحوا فى ذلك بممالأة الوزراء لهم ، وكان جلهم من بنى جلدتهم .

هذا كلام فى نظرنا بعيد عن التحقيق ؛ فانك رأيت أن هؤلاء الموالى نالوا السيادة العلمية على عهد بنى أمية ، ولم يكن إذ ذاك وزراء من الفرس يؤيدونهم ، بل كان الأمر كله بيد العرب ، ولم يشعر العرب أنفسهم ، وهم أهل ذكاء وفطنة ، أن هؤلاء الائمة الأعلام من الفرس الذين توزعوا سيادة الأقطار فى العلم كانوا يضمرون السوء لهم . ويبعد عن العقل أن أمة برمتها فى يدها الحكم تغبَى عن نية شر تضمرها لهم فئة فتخولهم قيادتها العلمية ، وسيادتها الدينية ؛ كما يبعد عن العقل أن تجمع هـذه الفئة على هذه النية الفاجرة ولا يفتضح أمرها لهذه الأمة فى الأجيال المتعاقبة ، فتَبقى على احترامها لهم ، و تبقى على اعتبار أفرادها أئمة لها فى الدين الى هـذا العهد ، حتى يقوم منا أديب بعد مضى ثلاثة عشر قرنا فيكشف عن دخيلة أمرهم ، فلم يكترث بما كشفه أحد ، ويمضى الناس فى احترامهم الى أبعد حد !

اذا فاز أدباؤنا المعاصرون بترسيخ هذا الخيال فى العقول ، فبأى عين ينظر الناس الى علومنا الدينية وجل وَضَعتها ومؤلفيها من الأعاجم ؟ فهم الكثرة الساحقة للفقهاء والمفسرين والمحدثين والأصوليين والمتكلمين ، وكتبهم عليها التعويل فى جميع معاهد العلوم الدينية فى العالم كله ، فى التدريس والتحقيق والفتوى الى يومنا هـذا ؟

وإذا عرفت أن العالم كله فى العصر الراهن اعترف بعظم شأن النهضة الدينية والعلمية والأدبية للمسلمين الأولين ، واعتبروها من الانتقالات الجديرة بالاجلال والاكبار ، فهل كانت هذه النهضة فى جلالها وعظمتها قائمة على هذا الأساس المتداعى من الضمائر التى دنستها السخائم ، والقلوب التى أفسدتها الأحقاد ؟!

اللهم إن هذا لا يستقيم لعاقل ، ولا يمكن أن يعتبر رأيا جديرا بالاحترام . فلنقلع عن هذه الخيالات إن كان بنا الى سمعتنا العلمية والعقلية حاجة !

محمد فريد وجدى

نظرات فى الادب العربى

جاهليه وإسلاميه

— ٥ —

الأدب العصرى

لسنا هنا بصدد تفصيل القول ، واستقراء مناحيه ، فى أنواع الأدب ، وحظ كل نوع منه من النهوض ، وقسطه من الضعف ، فموضع ذلك معاهد التعليم ، وحجرات الدرس ؛ إنما هى نظرات يسودها الإجمال ، وتغلب فيها الأحكام العامة ، ليخف تتبعها ، ويسهل تناولها على قراء المجلات ، وسوادهم الأغلب ليس من همه فلسفة التعليل ، والتعمق فى استقراء الأسباب ، والتدقيق فى إفضائها الى المسببات ، إلا على حال تغنى فيها غلبة الظن ، عن نشدان اليقين ؛ إن صح أن فى القضايا الأدبية يقينيات ينقطع عندها حبل الشك ، ويتم بإيرادها إيمان الباحثين . على أننا على استعداد لأن نجاذب من ينازعنا الحديث أطراف البحث فيه ، حتى ننتهى الى حد يحسن السكوت عليه ؛ فالطمأنينة العلمية ، والرجوع الى الحق ، وتحكيم الحجة ، دستور غير مكتوب ، ليس لمن خرج عليه رأى محترم ، ولا مذهب منتهج ، فى شريعة العلماء ، وأصحاب الفنون .

فى غضون ما أسلفنا من فصول هـذه النظرات ، أن التزام عمود الشعر العربى الجاهلى والاسلامى ، شرط أساسى فى تقويم الشعر ، واعتباره فى نظر الناقدين ؛ وأن الشعر مع ذلك خاضع لناموس التجديد ، يجود ويسمو كلما استطاع المواءمة ، بين الصور القديمة ، والصور الحديثة ، وإلباس المعانى المتجددة ، مطارف الأساليب العربية القشب ، التى لا تخلق على تطاول الأيام ، ولا تبلى على قدم الدهر ؛ بل :

يزيدها قـدم الليالى جـدة وتطاول الأيام حسن شباب

ويسقط ويسف ، كلما جد على القديم ، وبدا فى ثياب من أكفان الموتى ، وكلما تعرى من ثيابه التقليدية جملة ، وخطر فى زى « كرنفالى » غريب عما ألف ، بعيد عما عرف .

ولا شك أن المرحوم محمود سامى البارودى باشا ، يعتبر بحق مؤسس دولة الشعر فى العصر الحاضر ، اليه انتهى العهد التقليدى البحت ، وبه ابتدأ العهد الذهبى للشعر العصرى ، فلا عجب إذا غلبت على شعره النزعة التقليدية ، وكادت تستبد به مجاراة السلف الكريم من الشعراء ، فانه من عِشاشهم درج ، وفى مدارسهم تخرج ، وما الحب إلا للحبيب الأول . بيد أنه قـد

انتقل بالشعر من المجال الضيق المحدود فى الأساليب والمعانى والأغراض ، الى أفق أرحب ، وجو أفسح ، وفيض غير محدود من جزالة الألفاظ ، ونخامة المعانى ، واتساع الأغراض ، وطول النفس ، مما كاد به يبذ فحول السابقين ، ويخمل فحول اللاحقين ؛ وما قرأت مطلع قصيدته فى رثاء أبيه :

لا فارس اليوم يحمى سرحة الوادى طاح الردى بشهاب الحرب والنادى

إلا ذكرت به مطلع قصيدة الشريف الرضى فى رثاء أبيه :

منابت العشب ، لا حام ، ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع

ولا قرأت حماسته ، وذكر مواقفه الحربية ، إلا تخيلت أبا فراس الحمدانى يتكلم .

ولو نزع غلاف ديوانه ، وعناوين قصائده ، لرده قارئه الى العصور الذهبية للشعر العربى . وعلى الجملة لقد كان البارودى رحمة الله عليه ، عباسيا بشعره ، عصريا بزمنه .

***

عاصر البارودىّ شعراءُ أعلام ، رفعوا لواء الشعر خفاقا ، وتبوءوا من منازله عروشا مُشْرِفة منيفة ، بوأتهم إياها ثقافتهم التى جمعت بين القديم والجديد ، فأتوا بالمطرب المرقص من أفانين البيان ؛ وكان أبرز هؤلاء ، المرحوم اسماعيل صبرى باشا ، فقد تلقى علومه فى فَرَنسَة ، وكان لذلك الأثرُ البارزُ فى شعره : معانيه وأساليبه وأخيلته ؛ ثم فى توجيهه ، إذ جعله جميعا من النوع الرقيق المشاكل لتلك العاطفة الناعمة ، والحاشية اللينة ؛ والذى لا يصلح أحيانا لأنواع من الشعر ؛ وأكبر الظن أن ذلك كان السبب الأول فى عَدّه من الشعراء المقلين ؛ وإن كان على إقلاله من المبدعين ، وفى الصدر من المجددين .

ثم جاء شوقى فملأ الدنيا ، وشغل الناس ، كما ذهب القول فى المتنبى ؛ وكان — بحق — أمير الشعراء ، إذ ضرب بالسهم الأوفر فى كل فن من فنون الشعر ، وقطع ، وقصّد ، ورَجز ؛ فهو الشاعر الكامل فى نظر النقاد ؛ وهو فى كل أولئك ، يبلغ من الإجادة فوق الإرادة . وأقسم ما قرأت من قصيدته النبوية ، التى مطلعها :

به سحرٌ يُتَيّمُهُ كِلا جفنيك يعلمُهُ
هما كادا لمهجته ومنك الكيد مُعْظَمُهُ

قوله :

بروحى البانُ يوم رَنَا عن المقدور أعْصَمُه
وبوم طُعِنْتُ من غُصن مُعَلّمُه مُنَعّمُه

قَضَاءُ الله نظرته ولُطفُ الله مَبسِمُه
رمى ، فاستهدفت كبدى بى الرامى ، وأسْهُمُه !
له من أضلعى قاعٌ ومن عجب يسلّمُه
ومن قلبى وَحَبَّتِهِ كِناسٌ بات يهدمه
غزال فى يديه التِّيهُ ، بين الناس يقسِمُه
كأنّ أباه مَرَّ بأحمد الهادى يكلمه

إلا قلت : هذا ما أرادت الشعراء أن تقوله فأخطأته ، وبكت الديار ، ووقفت على الأطلال ، وهو الفُسْتقُ المقَشَّر الذى لا يشبع منه ؛ لا شعر عمر بن أبى ربيعة ، كما قال الأولان .

هذا مثل من رقيق شعره ؛ فاقرأ بعد ذلك من قصيدته : « الحرية الحمراء » ، لترى مثلا من الجزالة والفخامة ، يملؤك روعة ، ويبهرك جلالا ؛ وتعرف من هذا وذاك ، ومن غير هذا وذاك ، أنك أمام شاعر ، يستطيع إذا شاء أن يسمعك غرد البلابل ، وقصف الرعود ، ويريك نسج الربيع فى مطارف الروض النضير ، ومواقع القنا والسيوف فى الأعناق والنحور .

وجرى فى حلبة هؤلاء الفرسان الثلاثة ، مصلّون كانوا يجاذبونهم هُدب الإجادة ، ويجارونهم فى ميادين الإبداع والإحسان ؛ أدركناهم ، وقد ملئوا الوادى السعيد غردا وسحرا ، يسمى شعرا ؛ وكان لهم فى مطلع كل موسم جولة ، وفى كل حادث صولة ؛ وكانت دولة الشعر بهم قائمة السوق ، وسوقه بهم دائمة النفوق .

لما تصاعدت دراكا هذه البدور اللوامع الى سماء الآخرة ؛ استيقظ فى نفوسنا الأمل فى أن البقية الباقية من الشعراء الأحياء فى مصر ، وهم بحمد الله كثيرون ، سيملئون الثغور التى خلت فى دولة الشعر ، وأن هذه الكواكب المتلألئة ستُبدر فى آفاقه ، التى خلاّها بُدورُها ، وأن أولياء الشعر سينشدون فاخرين :

بدور سماء ، كلما انقضّ كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

ولكننى أخشى أن أقرر أن شواهد الحال الى اليوم ، لا تعين على تحقق هذا الأمل ، إلا فى شكل مصغر ؛ فلقد فتر الشعر فتورا يشبه الجمود ، ولم ينشط منه إلا النوع الغنائى ، الذى هو من قبيل الموشحات والأزجال فى أغلب الأحوال ، والذى لا يعد من الشعر إلا على ضرب من التساهل ؛ بل لقد نُظمت أخيرا مسابقة ، فاز فيها وَشّاح واحد ، بجانب ثلاثة من الزجالين . ولقد زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان مالها ؟ بهذه الحرب الضروس ، فلم نقرأ فيها من الشعر ، إلا هذه المنظومات المهلهلة التى تطلع بها علينا الصفحات الأدبية من الصحف اليومية ، وغثاثتها وضعفها مما يسىء الى الشعر ، أكثر مما يحسن

إليه . وليس معنى هذا أنه ليس فى مصر شعراء ، كلا ، فالشعراء المجوّدون فى مصر كثيرون ، سأعرض لبعضهم فيما يلى إن شاء الله ؛ غير أن الظاهرة العجيبة ، أن هؤلاء الشعراء قد أجبلوا ؛ واكتفى أكثرهم من الاتصال بالشعر ، بأن يعيد نشر ما سبق إنشاؤه ونشره فى المدة التى كانت مزدهرة بالشعراء الراحلين ؛ ولولا ما لهم من المكانة السامية فى نفسى لذكرت أسماءهم ، وعناوين قصائدهم ؛ ولكننى أدع ذلك لوجه الأدب ، وأستخدمه سلاحا فى مضايقتهم عند اللزوم .

أما تعليل هذا الفتور ، وبسط ما يترجح عندى من أسبابه ، فموعده الحديث الآتى ، فلقد طال بنا هذا الحديث ؟

كلية اللغة العربية **عبد الجواد رمضان**

كلمات حول الجود

قال على كرم الله وجهه : السخاء ما كان ابتداء ، فأما ما كان عن مسألة فحياء .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما لابن أخيه : أفضل العطية ما أعطيت الرجل قبل المسألة ، فإذا سألك فإنما تعطيه ثمن وجهه حين بذله لك .

قال شاعر فى هذا المعنى :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضا وإن نال الغنى بسؤال
فإذا السؤال مع النوال وزنته رجح السؤال وخف كل نوال

وقال غيره :

ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهى إذا أفنيته عوضا

وقيل موجزا : أجل النوال ، ما وصل قبل السؤال .

وقيل : أولى الناس بالنوال ، أزهدهم فى السؤال .

ومما نسب الى على كرم الله وجهه من الشعر ولا نظن أنه له :

سأمنح مالى كل من جاء طالبا وأجعله وقفا على القرض والفرض
فإما كريم صنت بالمال عرضه وإما لئيم صنت عن لومه عرضى

فى عجز البيت الأخير نظر ، فإن الرضوخ للؤماء قد أوجد فى الشرق طائفة تتجر بالهجاء ، وقد استهتروا فيما هم فيه حتى فرضوا على الناس الاتاوات ، فهؤلاء يحرم إعطاؤهم ليقلعوا عما هم فيه ، وإلا اعتبر معطوهم شركاء لهم فى إفساد المجتمع .

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن الزبير

أمة من البطولة فى إهاب رجل ، وعبقرية موروثة ، ونفس طموح ، وروح وثاب ، وهمة دون غايتها مناط الجوزاء ، أحوج ما يكون شباب الاسلام فى عصرنا الحاضر الى التأسى به فى عصاميته التى جعلت منه شخصية نافست دولة استقام لها الملك على أطراف الأسنة وشبا الصوارم ، ولكنها عوامل التربية الاسلامية ، لا يستعصى عليها إعداد الأبطال وقادة الأمم إذا أخذت بزمامها يد صالحة ، واستقيت من منابعها الفياضة بالحياة الزاخرة بحوافز النفوس ودفعها الى الحرص على الموت لتوهب لها الحياة ، بل هى مدرسة المرأة المسلمة فى بيتها إذا أخذت بقيادها امرأة كأسماء بنت أبى بكر الصديق والدة عبد الله بن الزبير ، فإذا هى مصنع الرجولة فى أكمل معانيها وأسمى مبانيها .

فى صحيح البخارى أن ابن عباس وصف عبد الله بن الزبير فقال : « عفيف الاسلام ، قارئ القرآن ، أبوه حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه بنت الصديق ، وجدته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمة أبيه خديجة بنت خويلد » .
فهو قد أخذ بأطراف المجد والسيادة فى حسبه ، وشرف بأعظم الفضائل فى نسبه ، وزكت نفسه فاستشرف الى أريكة الإمامة العظمى حتى إذا كان منها إجماعية قاب قوسين أو أدنى ، غلب القضاء ، وبلغ الكتاب أجله ، ولقى أبو خبيب ربه شهيدا مجاهدا فى سبيل الحق والعدل ، فكان مثلا مضروبا للعزة الاسلامية ، والبطولة العربية .

ولد عبد الله بن الزبير حين شب الاسلام واستقامت قناته ، وقويت شوكته ، وأخذ يناضل الوثنية بالسيف ، ويخوض فى سبيل الحق غمرات الموت بجنده الغر البهاليل ، فكان أول ما تفتحت حواس عبد الله أن شهدت مواقع العزة والنضال ، وسمع أول ما سمع أنباء غزوات الاسلام واستبسال أبطال الاسلام ، وفى طليعتهم أبوه الزبير بن العوام . روى البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما قال : « كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمر ابن أبى سلمة فى النساء ، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف الى بنى قريظة مرتين أو ثلاثا ، فلما رجعت قلت : يا أبت رأيتك تختلف ، قال : أو هل رأيتنى يا بنى ؟ قلت : نعم ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يأت بنى قريظة فيأتينى بخبرهم ؟ فانطلقت فلما رجعت جمع لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه ، فقال : فداك أبى وأمى » .

رأى ذلك عبد الله ورأى غيره ، وسنه لم تعد الخامسة ، فكان كل أولئك مخضا لحياته منذ تنفس فى المهد . يحدثنا الثقات من كتاب السيرة أن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما حملت بعبد الله بن الزبير بمكة ، قالت : فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة ونزلت بقباء ، فولدته بقباء ، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعته فى حجره ، ثم دعا بتمرة فمضغها ، ثم تفل فى فيه ، فكان أول شيء دخل فى جوفه ريق النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم حنكه بالتمرة ودعا له وبرّك عليه ، وكان أول مولود ولد فى الاسلام للمهاجرين بالمدينة » . قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب الاستيعاب : « وقد فرح المسلمون بمولده فرحا شديداً ، وكبروا حينما بشروا به ، لأن اليهود قالت : قد أخذناهم (سحرناهم) فلا يولد لهم بالمدينة ولد » .

ولم يكد عبد الله يبلغ سن الترغيب فى تعوّد العبادة والخير طفلا يلعب مع لداته ، حتى أمره أبوه الزبير أن يذهب ليبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء بركته له ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم تبسم له وبايعه وهو ابن سبع سنين . وكان عبد الله منذ نشأته جريئا شجاعا مقداما ، لا يهاب ولا يفزع . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كلّمَ فى غلمة من قريش ترعرعوا : عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، وعمر بن أبى سلمة ، فقيل : لو بايعتهم فتصيبهم بركتك ويكون لهم ذكر ! فأتى بهم إليه ، وكأنهم تكعكعوا ، فاقتحم عبد الله ابن الزبير أولهم ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إنه ابن أبيه » ! وكان أبوه كما أسلفنا من أشجع وأجرأ أبطال الاسلام ، وهذا سر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنه ابن أبيه »

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يمر فى إحدى سكك المدينة ، وأطفال فيهم عبد الله بن الزبير يلعبون ، فلما رأوا عمر تفرقوا سوى ابن الزبير فانه بقى فى مكانه لا يريم ، فقال له عمر : لِمَ لمْ تذهب كما ذهب أترابك ؟ فقال عبد الله : لم يكن الطريق ضيقا فأوسع لك يا أمير المؤمنين ، ولم أكن مذنبا فأخافك ! ! وهكذا نرى شخصية عبد الله وهو فى غرار الصبا وكن الطفولة قوية متينة ، نراه شديد المراس ، قوى الشكيمة ، لا يستخذى ولا يلين ، ولا يسمع لغير صوت ضميره ، ولا يبالى أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه ، يبغض أشد البغض حياة الجمود والاستسلام ؛ وقد نبأه النبى صلى الله عليه وسلم بشأنه فى كلمة جامعة : روى أبو يعلى والبيهقى « أن عبد الله بن الزبير حدّث ابنه عامرا ، أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم ، فلما فرغ قال : يا عبد الله اذهب بهذا الدم فاهرقه حيث لا يراك أحد ؛ فلما برز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمد الى الدم فشربه ، فلما رجع قال له النبى صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله ما صنعت بالدم ؟ قال : جعلته فى أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس ؛

قال : لعلك شربته ؟ قال : نعم ، قال : ولم شربت الدم ؟ ويل للناس منك ، وويل لك من الناس ! لا تمسك النار إلا تحلة القسم . قال بعض التابعين : فكانوا يرون أن القوة التى به من ذلك الدم » .

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تجاوز سن عبد الله بن الزبير التاسعة ، كما صرح به الإمام الشافعى فى الرسالة ؛ وتولى جده لأمه أبو بكر الصديق الخلافة ، وتوقف بنو هاشم أول الأمر عن بيعته لما كانوا يرون من حقهم فيها ، وانحاز اليهم فى ذلك أبو عبد الله الزبير ابن العوام لمكان أمه صفية بنت عبد المطلب من الدوحة الهاشمية . وذكر الرواة أن عمر بن الخطاب ذهب اليهم فى عصابة من الأنصار فيهم أسيد بن حضير وسلمة بن أشيم ، فقالوا لهم : انطلقوا فبايعوا أبا بكر ، فأبوا ، فخرج الزبير بالسيف ، فقال عمر : عليكم بالرجل فخذوه ، فوثب اليه سلمة بن أشيم فأخذ السيف من يده وانطلقوا به ، فبايع ، ثم بايع بنو هاشم .

لم تسمح سن عبد الله فى هذا الوقت بتكييف موقفه من خلافة جده الصديق وموقف أبيه منها ، ولم يكن الزبير ليحطب فى حبل الهاشميين بانحيازه اليهم ، ولكنه كان يطلب المجد لنفسه متربصا به سوانح النُّهَز حتى أتيحت له فى رهط الشورى أولاً ، وفى خلافة عثمان ثانياً ، وفى هذه المرة تجلت نفسه واضحة ؛ فقد روى البخارى فى صحيحه « أن عثمان بن عفان أصابه رعاف شديد سنة الرعاف حتى حبسه عن الحج ، وأوصى فدخل عليه رجل من قريش ، قال : استخلف ، قال : وقالوه ؟ قال : نعم ، قال : ومَن ؟ فسكت ، فدخل عليه رجل آخر فقال : استخلف ، فقال عثمان : وقالوا ؟ فقال : نعم ، قال : ومن هو ؟ فسكت ، فقال : فلعلهم قالوا الزبير ؟ قال : نعم ، قال : أما والذى نفسى بيده إنه لخيرهم ما علمت ، وإن كان لأحبهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! » . ويظهر أن غلبة الهاشميين على الزبير فى المرة الأولى وقلة أنصاره ، وقرب العهد ، جعلته يكل أمره الى على بن أبى طالب ولم يطلب لنفسه شيئا ، فلما بلغ عبد الله أشده واستوت رجولته ، وتكيفت مطامحه ، لم يزل بأبيه حتى جعله يبين عن ذات نفسه ، ويقف موقفا صريحا يباعد بينه وبين أخواله من الهاشميين ؛ وفى ذلك يقول على بن أبى طالب : مازال الزبير يُعدّ منا أهلَ البيت حتى نشأ عبد الله .

ظلت مخايل النبل والشجاعة فى عبد الله بن الزبير تبدو قوية قاهرة ، فى بطولته ، وإقدامه وفصاحته ؛ يشهد بها مواقع النصر للاسلام جنديا صادق اللقاء ، عظيم الإيمان ، ثابت الجنان ؛ اجتمع مع أبيه فى وقعة اليرموك ، وشهد فتح إفريقية ، وكان البشيرَ بالفتح الى عثمان رضى الله عنه ، وكانت هذه البشارة فتحا جديدا فى حياة عبد الله ، كشفت بها العناية الإلهية عن فضائل اشتملت عليها نفس عبد الله ، هى عدة الأبطال فى غمرات الحياة . روى ابن عبد ربه فى كتاب العقد الفريد قال : قدم عبد الله بن الزبير على عثمان بن عفان بفتح إفريقية ، فأخبره مشافهة ، وقص عليه كيف كانت الواقعة ، فأعجب عثمان ما سمع ، فقال له : يا بنى أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنى أهيَب لك منى لهم ! فقام عثمان فى الناس خطيبا فحمد الله

وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس : إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله . وكان عبد الله بن الزبير الى جانب المنبر ، فقام خطيبا ، وكان أول من خطب الى جانب المنبر ، فقال : « الحمد لله الذى ألّف بين قلوبنا ، وجعلنا متحابين بعد البغضة ، الذى لا تجحد نعماؤه ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمد نفسه وكما هو أهله ، انتخب محمدا صلى الله عليه وسلم فاختاره بعلمه ، وائتمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعوانا ، قذف فى قلوبهم تصديقه ومحبته ، فآمنوا به ، وعزروه ، ووقروه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح ، والبيع الرابح ، وبقى منهم من بقى لا تأخذهم فى الله لومة لائم . أيها الناس : رحمكم الله ، إنا خرجنا للوجه الذى علمتم ، فكنا مع والٍ حافظ ، حفظ وصية أمير المؤمنين ، وكان يسير بنا الأبردين ، ويخفض بنا فى الظهائر ، ويتخذ الليل جملا ، يعجل الرحلة من المنزل الجدب ، ويطيل اللبث فى المنزل الخصب ، فلم نزل على أحسن حالة نعرفها من ربنا حتى انتهينا الى إفريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورغاء الابل وقعقعة السلاح ، فأقمنا أياما نجم كراعنا ، ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم الى الإسلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، وسألناهم الجزية عن صَغار أو الصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نتأتاهم وتختلف رسلنا إليهم ، فلما يئس منهم قام خطيبنا فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد وما لصاحبه إذا صبر واحتسب ، ثم نهضنا الى عدونا وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك ، وصبر فيه الفريقان ، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد الله فيهم رجالا من المسلمين ، فبتنا وباتوا ، وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل ، وبات المشركون فى خمورهم وملاعبهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التى كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينا صبره ، وأنزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيئا واسعا ، بلغ فيه الخمس خمسمائة ألف ، فصفق عليها مروان بن الحكم ، فتركت المسلمين قد قرت أعينهم ، وأغناهم النفل ، وأنا رسولهم الى أمير المؤمنين ، أبشره وإياكم بما فتح الله من البلاد ، وأذل من الشرك ، فاحمدوا الله عباد الله على آلائه ، وما أحل بأعدائه من بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين »

ثم سكت ، فنهض أبوه الزبير فقبّله بين عينيه وقال : ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم ، يا بنى مازلت تنطق بلسان أبى بكر حتى صمت !؟

صادق ابراهيم عرجون

التجديد والمجددون فى الاسلام

من القرن الأول الهجرى الى عصرنا الحاضر

الامام الأعظم أبو حنيفة

دراسات فى حياته الأوليـة والعلمية

١ — بماذا اشتغل فى أول أمره ؟

اشتغل الامام أبو حنيفة فى أول أمره تاجرا ، فـكان خزازا يشترى ثياب الخز ويبيعها ، وكان له وكلاء يرسلهم الى الجهات لشراء ثياب الخز وبيعها ، وكان ماهرا فى التجارة مسعودا فيها ، وعنده رأس مال كبير . أما سيرته فى التجارة فـكانت قائمة على الأمانة والصدق وحسن المعاملة .

وما زال أبو حنيفة يختلف الى السوق للبيع والشراء ، حتى قيض الله تعالى له الامام الشعبى فأرشده الى طلب العلم ، ومجالسة العلماء ، لما رآه من كامل استعداده ووفور عقله ، وفرط ذكائه ونجابته ، وشدة يقظته ، وحسن أخلاقه . ولقد أشار الامام أبو حنيفة نفسه الى شيء من هـذا فقال : مررت يوما على الشعبى وهـو جالس ، فدعانى وقال لى : الى من تختلف ؟ فقلت : الى السوق . فقال : لم أعن الاختلاف الى السوق ، عنيت الاختلاف الى العلماء . فقلت : أنا قليل الاختلاف اليهم . فقال لى : لا تفعل ، وعليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلمـاء ، فإنى أرى فيك فطنة وحركة ويقظة . فوقع فى قلبى كلامه ، وهزنى الى طلب العلم ، فتركت الاختلاف الى السوق واشتغلت بالعلم ، فنفعنى الله تعالى بقوله .

٢ — كيف تعلم أبو حنيفة ؟

ولقد كان من ثمرات إرشاد الشعبى أبا حنيفة ، أن شرع فى طلب العلم ، فأخذ ينظر فى علم الـكلام ، لأنه كان يعده من أفضل العلوم لـكونه فى أصل الدين ، حتى بلغ فيه الغاية ، وصار فيه وفى طرائق الجدل رأسا يشار اليه فيهما بالبنان ؛ ولهذا دخل البصرة نيفا وعشرين مرة لمجادلة طبقات الخوارج والحشوية وأهل الأهواء وأرباب الخصومات والجـدل ، وكان أكثر فرقهم بها ، وكان يمكث فى كل مرة من هـذه المرات سنة أو أكثر أو أقل لمنازعة هؤلاء . ثم ألهم أن الصحابة ومن اليهم مع أنهم كانوا على ذلك أقدر وأعلم بحقائق الامور ، لم ينتصبوا مجادلين ولا منازعين ، بل أمسكوا عن ذلك ، وخاضوا فى الشريعة وفى تعليم الناس ، لهـذا ؛ اك طرائق الجدل واشتغل بما كان يشتغل به سلف الأمة الصالح .

٣ — لماذا اشتغل بالفقه ؟

كان لأبى حنيفة بالمسجد حلقة يدرس فيها علم الكلام ، فجاءته امرأة ذات يوم وسألته هذا السؤال : رجل له امرأة أمة يريد أن يطلقها للسنة ، فكيف يطلقها ؟ فلم يهتد للجواب ، وأمرها أن تسأل « حماد بن أبى سليمان » وكانت حلقة درسه بجوار حلقة درس أبى حنيفة ، ثم تعلمه بالجواب ، فسألت حمادا فأجابها بقوله : يطلقها وهى طاهر من الحيض والجماع تطليقة ، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين ، فإذا اغتسلت فقد حلت للأزواج . فرجعت المرأة الى أبى حنيفة وأخبرته بفتوى حماد ، فقال أبو حنيفة : لا حاجة لى بالكلام ويكفى ما عرفته منه ، ثم فكر فى الفقه ، فكلما قلبه وأداره لم يزدد عنده إلا جلالة وحلاوة ، ولم يجد فيه عيبا ، بل إن أمر الدين والدنيا لا يستقيم إلا بمعرفته ، لذلك عزم على الاشتغال به ، وتحول إلى حلقة « حماد » فوجد عنده كل ما كان يحتاج اليه ، وكان يسمع منه المسائل فيحفظها ويخطئ أصحابه ، فقال : لا يجلس فى صدر الحلقة بجوارى غير أبى حنيفة ، فصحبه عشر سنوات ، وقيل ثمانى عشرة سنة ؛ ثم أحب أن يعتزله ويستقل بحلقة لنفسه ، وعزم على تنفيذ ذلك . وهنا يحدثنا أبو حنيفة عما حدث بعد هذا قال : فلما دخلت المسجد ورأيت حمادا لم تطب نفسى أن أعتزله ، فجلست معه . ثم جاءه نعى قريب له مات بالبصرة ، وترك مالا ولا وارث له غيره ، فأمرنى أن أجلس مكانه ، فلما خرج وردت علىّ مسائل لم أسمعها منه ، فكنت أجيب عنها ، وأكتب جوابى ، فغاب شهرين ثم قدم ، فعرضت عليه المسائل وأجوبتها ، وكانت ستين مسألة ، فوافقنى فى أربعين ، وخالفنى فى عشرين ، فآليت على نفسى أن لا أفارقه حتى يموت ، فلم أفارقه حتى مات ، رحمة الله تعالى عليه .

٤ — ما هى العلوم التى تعلمها ؟

وعلى الجملة فقد أخذ الإمام أبو حنيفة من العلوم بأوفر نصيب ، وبلغ فيها مبلغا يشار اليه بالأصابع ، وناهيك به أنه سلم إليه علم النظر والقياس وإصابة الرأى حتى قالوا : « أبو حنيفة إمام أهل الرأى » . فأما العلوم الشرعية والعربية والأدبية والحكمية ، فكان فى كل هذا بحرا لا يجارى ، وإماما لا يمارى . وله مسائل فقهية بنى فيها أقواله على علم العربية ، ومن تأملها يقضى بتمكنه من هذا العلم بما يبهر العقل . وأما القراءات فقد أفردوا بالتأليف قراءات انفرد بها ورووها عنه بالأسانيد ؛ وكان يحفظ القرآن كله ، وصح عنه أنه كان يقرأ القرآن الكريم كله فى رمضان مرات كثيرات ، ويديم قراءته ليلا ونهارا . وأما الفقه فماذا يقال فيه بعد أن قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه : الناس عيال أبى حنيفة فى الفقه ؟ وقال أيضا : من أراد أن يعرف الفقه فليلزم أبا حنيفة وأصحابه . وقال أيضا : قلت لمالك : كيف رأيت أبا حنيفة ؟ فقال : رأيت رجلا لو كلمك فى السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته . وأما السنة : فقد كان فيها

بحرا زاخرا لا ساحل له ؛ وكان فى تفسير الحديث آية ، قال الامام أبو يوسف : ما رأيت أحدا أعلم بتفسير الحديث ، بصيرا بعلله ، وبالتعديل والتجريح من أبى حنيفة . ومما يدل على قول أبى يوسف هذا ، وعلى إحاطة أبى حنيفة بالسنة وتمكنه من رواياتها ، ومعرفة رجالها ، ووقوفه عند حدها لا يتجاوزها قيد شعرة ، المحاورة التى وقعت بين الامام الأوزاعى وأبى حنيفة ؛ فقد قال الامام سفيان بن عيينة : اجتمع أبو حنيفة والأوزاعى فى دار الحناطين بمكة ، فقال الأوزاعى لأبى حنيفة : ما لكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع وعند الرفع منه ؟ فقال أبو حنيفة : لأنه لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شىء . قال : كيف وقد حدثنى الزهرى عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة ، وعند الركوع ، وعند الرفع . فقال أبو حنيفة : حدثنا حماد عن ابراهيم ، عن علقمة والأسود ، عن ابن مسعود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ، ولا يعود إلى شىء من ذلك . فقال الأوزاعى : أحدثك عن الزهرى ، عن سالم عن أبيه ، وتقول : حدثنى حماد عن ابراهيم ! ! فقال له أبو حنيفة : كان حماد أفقه من الزهرى ، وكان ابراهيم أفقه من سالم ، وعلقمة ليس بدون ابن عمر ؛ وإن كان لابن عمر صحبة ، أو له فضل صحبة ، فالأسود له فضل كثير ، وعبد الله هو عبد الله . فسكت الأوزاعى .

٥ — لماذا اشتغل أبو حنيفة بالتدريس والافتاء ؟

لما توفى حماد بن أبى سليمان شيخ أبى حنيفة ، وكان الناس به أغنياء ، احتاج الكوفيون لمن يسد مسده ، ويتولى التدريس مكانه ، فجربوا كثيرين فلم يجدوا عندهم من العلم ما يغنيهم ، فأجمع رأيهم على أبى حنيفة ، فأجاب داعيهم وقال : ما أحب أن يموت العلم . فاختلفوا إليه ، فوجدوا عنده من العلم الغزير ، والفضل الكثير ما لم يجدوه عند غيره ، فلزموه وتركوا سواه ، ولم يزل ذكره فى ارتفاع ، وتكثر أصحابه وتلاميذه ومريدوه ، حتى صارت حلقته أعظم حلقة فى المسجد ، وأقبل عليه وجوه الناس وكبراؤهم ! وأكرمه الأمراء والحكام ، وأثنى عليه الأفاضل .

٦ — عمن أخذ العلم ؟

تلقى أبو حنيفة العلم عن كبار أئمة عصره . منهم : عطاء بن أبى رباح ، المتوفى سنة ١١٤ هـ الذى سمع عائشة وأبا هريرة وابن عباس وغيرهم ، والذى يقول فيه ابن عباس : يأهل مكة : تجتمعون على وعندكم عطاء ؟ ومنهم نافع مولى ابن عمر المتوفى سنة ١١٧ هـ الذى روى عن مولاه وعن عائشة وأبى هريرة وغيرهم . ومنهم الامام الفقيه الحافظ عامر الشعبى المتوفى سنة ١٠٣ أو ١٠٤ . وأخذ الفقه عن حماد بن أبى سليمان كما تقدم ، وحماد أخذه عن ابراهيم بن يزيد النخعى المتوفى سنة ٩٥ ، وأخذه ابراهيم عن خاله علقمة بن قيس النخعى الكوفى المتوفى

سنة ٦٢، والذى ولد فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع من عمر وعثمان وعلى ، وتفقه بابن مسعود ، وكان أنبل أصحابه ، وأخذ ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وصار الفقه من الله تعالى الى نبيه عليه الصلاة والسلام . وقال خلف بن أيوب : صار العلم من الله تعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم صار الى الصحابة ، ثم صار الى التابعين ومنهم أبو حنيفة ، فمن شاء فليرض ، ومن شاء فليسخط .

٧ — تلاميذ أبى حنيفة .

قال بعض الأئمة : لم يظهر لأحد من أئمة الاسلام المشهورين مثل ما ظهر لأبى حنيفة من الأصحاب والتلاميذ ، ولم ينتفع العلماء والناس بمثل ما انتفعوا به وبأصحابه فى العلوم المختلفة : من تفسير الأحاديث المشتبهة ، والمسائل المستنبطة ، والنوازل ، والقضاء والأحكام ، فجزاهم الله عن الاسلام والمسلمين والعلم خير الجزاء .

٨ — من هم الصحابة الذين عاصرهم أبو حنيفة ؟

اتفق المحدثون على أن أربعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا فى عهد أبى حنيفة فى الأحياء وإن تنازعوا فى روايته عنهم ؛ الصحابى الأول : أنس بن مالك المتوفى سنة ٩١ أو بعدها ؛ الصحابى الثانى : عبد الله بن أبى أوفى المتوفى سنة ٨٦ أو بعدها ؛ الصحابى الثالث : سهل بن سعد الساعدى ، المتوفى سنة ٨٨ أو بعدها ، الصحابى الرابع : أبو الطفيل عامر آخر الصحابة وفاة .

٩ — هل أبو حنيفة من التابعين ؟

سئل الحافظ العراقى : هل أبو حنيفة من التابعين ؟ فقال : من يكتفى فى التابعى بأنه هو الذى رأى الصحابى مجرد رؤية يعد أبا حنيفة من التابعين ، ومن الثابت أنه رأى أنس ابن مالك . وسئل الحافظ ابن حجر هذا السؤال فقال : أدرك أبو حنيفة جماعة من الصحابة ، ورأى بعضهم ، فهو بهذا الاعتبار من التابعين ؛ وقد روى بعض الأحاديث عن الصحابة ، والى هذا أشار بقوله : ما جاءنا عن الله ورسوله والصحابة فعلى الرأس والعين ، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال ، لأنه ممن زاحم التابعين فى الفتوى ؟

السيد عفيفى

الفيلسوف أبو نصر الفارابى

قال ابن أبى أصيبعة (فى عيون الأنباء) : إنه هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان . وقال ابن خلكان : هو أبو نصر محمد بن طرخان بن أوزلغ . وقال ابن النديم : هو أبو نصر محمد ابن محمد بن محمد بن طرخان . وقال صاعد فى الطبقات : هو أبو نصر محمد بن نصر . ولكن ما لا خلاف فيه أن اسم الفارابى : محمد ، وكنيته أبو نصر .

وذكر ابن حوقل أنه ولد بمدينة (وسيج) ، وهى على الشاطئ الغربى من نهر سرداريا .

والمستشرقون يعتمدون هذا القول . لكن كثيرين من مؤلفى العربية كالقفطى وابن أبى أصيبعة وابن خلكان صرّحوا بأن الفارابى من مدينة (فاراب) . وقال ابن خلكان : إن هذه المدينة تسمى لعهده (أطرار) . وقال الأستاذ (بارتولد) فى الفصل الذى كتبه فى دائرة المعارف الاسلامية : « إن الأصطخرى الذى وجد فى أوائل القرن العاشر يذكر أن قصبة ولاية فاراب كانت تسمى (قَدَر) فى شرق نهر سرداريا على نصف فرسخ من مجراه ؛ وعلى الشاطئ الغربى من هذا النهر على فرسخين دون (قدر) توجد (وسيج) التى هى حصن صغير .

ولسنا نعرف مولد الفارابى إلا بالتقريب استنتاجا مما ذكره المؤرخون فى وفاته . فقد ذكر ابن خلكان أنه توفى سنة ٣٣٩ ﻫ (٩٥٠ — ٩٥١ م) وقد ناهز ثمانين سنة ، ويكون إذاً مولده حول سنة ٢٥٩ ﻫ (٨٧٢ — ٨٧٣) .

ولا يعرف شىء عن طفولته وشبابه ، إنما يقول المؤرخون : إنه خرج من بلده وانتقلت به الأسفار الى أن وصل بغداد . وهو يعرف اللسان التركى ، وعدة لغات أخرى .

والظاهر أن الفارابى حين وصل الى بغداد حوالى سنة ٣١٠ ﻫ وهو يومئذ يناهز الخمسين ، حضر دروس أبى بشر متى فى المنطق ، واتصل بأئمة الحكمة والعلم تكميلا لما عنده من العلم ، وتحول الى حران فأخذ عن يوحنا بن حيلان المنطق ، ثم عاد الى بغداد وقرأ بها الفلسفة وتناول جميع كتب أرسطاليس . ويقال إنه وجد كتاب النفس لأرسطاليس وعليه بخط أبى نصر الفارابى : إنى قرأت هذا الكتاب مائة مرة .

ثم انتقل الفارابى الى الشام ، ثم توجه الى مصر ، وعاد الى الشام واتصل هناك بسيف الدولة ابن حمدان الذى عرف له فضله وأكرم وفادته ، فعاش فى كنفه حتى مات بدمشق سنة ٣٣٩ ﻫ وصلى عليه سيف الدولة فى أربعة من خواصه أو خمسة عشر . ودفن بظاهر دمشق خارج

حياة الفارابى الفلسفية :

لسنا نعرف على وجه يقينى كثيرا عن حياة الفارابى العلمية . فإنه كان رجلا ممن يخلدون الى السكينة والهدوء ، وقد وقف جهاده العلمى على التأمل .

ففى مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده : كان الفارابى كثيرا ما ينفرد بنفسه ، ولا يكون إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض ، ويؤلف كتبه هناك . وكان أكثر كتبه فى الرقاع ، ولم يصنف فى الكراريس إلا قليلا ، ولذلك كانت أكثر تصانيفه فصولا وتعليقات ، وبعضها مبتورا ناقصا (ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٦٠) . والفارابى إنما كان يعتزل الناس ويؤثر الوحدة ، لما رأى أن أمر النفس وتقويمها أول ما يجب أن يبتدئ به الانسان ، حتى إذا أحكم تعديلها وتقويمها ، ارتقى منها الى تقويم غيرها ، كما ذكر ذلك فى كتاب (الجمع بين رأيى الحكيمين) .

قال بعضهم : الحكماء أربعة : اثنان قبل الاسلام ، وهما أفلاطون وأرسطو ، واثنان فى الاسلام وهما أبو نصر الفارابى وأبو على بن سينا . وكان بين وفاة أبى نصر وولادة أبى على حوالى ثلاثين سنة ، وكان أبو على تلميذا لتصانيف الفارابى يعترف أنه لولاها لما اهتدى الى فهم ما بعد الطبيعة . وكما لقب أفلاطون بالحكيم الإلهى ، وأرسطاليس بالمعلم الأول ، لقب الفارابى بالمعلم الثانى ، وابن سيناء بالشيخ الرئيس .

وآراء العلماء مختلفة فى التقدير العلمى للفارابى . فالقفطى يقول : « هو فيلسوف المسلمين غير مدافع » . ويقول ابن خلكان : « هو أكبر فلاسفة المسلمين . ولم يكن منهم من بلغ رتبته فى فنونه . والرئيس أبو على بن سينا بكتبه انتفع ، وبكلامه استطاع وضع تصانيفه » .

ويقول ابن سبعين الفيلسوف الصوفى الأندلسى الذى يقال إنه انتحر بمكة شوقا الى الاتصال بالله سنة ٦٦٩ هـ فى كتاب له مخطوط ، ما نصه نقلا عن المجموعة التى نشرها الأستاذ ماسينيون :

« وأما الفارابى فقد اضطرب وخلط وتناقض وتشكك فى العقل الهيولانى ، وزعم أن ذلك تمويه وخرافة ، ثم شك فى النفس الناطقة هل غمرتها الرطوبة أو حدثت بعد . وتنوع اعتقاده فى بقاء النفوس بحسب ما ذكر فى كتاب الأخلاق وكتاب الملة الفاضلة والسياسة المدنية » .

وقال الأستاذ « كارا دى فو » فى ترجمته للفارابى بدائرة المعارف الاسلامية :

« مذهب الفارابى هو مذهب الأفلاطونية الجديدة الاسلامية الذى بدأه من قبله الكندى . ووجد فى كتب ابن سينا من بعده أكمل عبارة عنه . وقد يكون من الراجح أن الفارابى يخالف الكندى وابن سينا فى بعض المواضع ، ولكن من العسير تعيين هذه المواضع . ومن المناسب التحفظ بل الشك فى تفسير ما يتعلق بتفصيل مذهبه . والواقع أنا لا نعرف من آثاره إلا قليلا . ثم إن أسلوبه لا يخلو من غموض » .

نظرة إجمالية فى فلسفة الفارابى :

إذا نظرنا الى فلسفة الفارابى فى جملتها، وجدناها مذهبا روحانيا متسقا تمام الاتساق ، وبعبارة أدق : مذهبا عقليا . فالوجود الحقيقى عنده إنما هو العقل وإن كان ذا مراتب متفاوتة، والله وحده هو العقل المحض الذى لا تخالطه كثرة .

والموجودات فى نظره عبارة عن سلسلة متصلة متدرجة ، والعالم كل منظم ، وأجزاؤه مرتبة ترتيبا بديعا ، وعناية الله من وراء ذلك محيطة بالأشياء جميعها (عيون المسائل ص ١٨) .

والمدينة الفاضلة أمتع ما كتب كاتب أو فيلسوف ، يتجلى فيها صدق الرجل ، وصبره وطول أناته ، وحسن تخريجه وتعليله .

يلمس القارئ فى المدينة الفاضلة للفارابى جلال الحياة الدنيا وجلال الفناء . فهو يجمع بين العبرة والتاريخ . نراه يجد فى استنباط الأحكام بحيث لا تتناقض فيها الآراء ولا تصطدم الظنون ، ولا تغيب الحقيقة وراء الأغراض والشهوات والأوهام .

كان الفارابى يصنف كتبه فى أيقظ أوقاته ، وفى أتم صورة وأجمل أسلوب . ويتجلى من هذه الكتب أنه كان عالما بالأدب والرياضيات والنحو والبلاغة والمنطق والموسيقى والهندسة والفلك . وكان يعرف التركية والفارسية .

والفارابى لا ينى يدير الفكرة فى رأسه ونفسه ، ثم هو لا يستريح حتى يسمعها صوتا ، لأن ذلك أوكد للحقائق وأدعى الى التأمل فى معانيها والترسيم للابسانها . له قدرة على نقل المعانى من فضاء التجريد الى حظيرة الموسيقى . وكان هذا فى نظره أدعى الى تثبيت المعنى وتوكيده والاستقرار فى النفس ، حيث إن هذا أكمل وضوحا وأدوم فى الذاكرة والشعور ، ولهذا كان الفارابى موسيقيا بارعا ، وصاحب مصنفات موسيقية لا زالت مرجعا للوضع والتطبيق .

تأثير فلسفة الفارابى :

لم يكن للفارابى كثير من التلاميذ ، إلا أنه اشتهر من بين تلاميذه أبو زكريا يحيى بن عدى (وله مخطوط ينسب له يسمى تهذيب الأخلاق) ، وهو نصرانى يعقوبى ، وقد اشتهر أبو زكريا بترجمة كتب أرسطو .

ولزكريا تلميذ أشهر منه ذكراً هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى الذى التف حوله علماء عصره فى بغداد فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى (الرابع من الهجرة) . وقد انتهى إلينا بعض ما كان يدور فى مجلسه من مباحثات ، وبعض التعاليم الفلسفية التى كان يلقنها لمستمعيه . وهنا رأينا مدرسة الفارابى تستحيل الى فلسفة لفظية ، ونرى الجدل يدور حول تحديد المعانى والتدقيق فى التمييز بينها . وكانت تبحث الى جانب هذا مسائل

متفرقة من كلام الفلاسفة المتقدمين ، ومن فروع العلوم ، من غير نظام يؤلف بينها . ورأينا مسألة النفس تستأثر بالمكان الأول كما كان الحال عند إخوان الصفا . وكانت هذه الفلسفة الفارابية تعالج عجائب أفعال النفس ، وتنظر فى جوهرها العقلى ، وفى العروج بها الى العالم العقلى الأسمى .

شخصية الفارابى :

الفارابى من الفلاسفة القلائل الذين أدركوا القيمة الحقيقية لهذا العالم وحقارة أطماعه المادية ، فى الوقت الذى أله فيه غيره من علماء عصره العالم ، وأله الانسان وأطماعه . وكانت نغمته لحنا لقلبه الزاهد حتى ارتقت نفسه الى درجات الزهد ، وخلع عن قلبه غرائز الأثرة ، ثم أخذ يلتفت الى ما وراءه لعله يرى بصيصا من وراء فلسفته الى ذلك النور الإلهى الذى حمل مشكاته الأنبياء فى كل العصور المتقدمة ؛ حتى أصبحت تعاليمه التى خلفها لنا هى التذكير برسالة الانسانية الكبرى التى حملها الأنبياء جميعا .

والفارابى نسيج وحده فى تعدد مناحى الفكر وتنوع المواهب . فهو فيلسوف يعالج الموضوعات الفلسفية العميقة . قد جمع بين عمق الفكر واستفاضة المعرفة ، وبين سعة العقل وسراوة الأخلاق والقداسة . وكان لكل فكرة فى عقله مدار ، ولكل ناحية من نواحى العلم فى نفسه مستقر . والفارابى فى كتابه المدينة الفاضلة يكاد يكون عالماً من علماء النفس ، يتصل بأجزائها فيقاربها ويخالطها ، ويعرض لكل ناحية من نواحيها ، ويصف هذه الناحية أدق وصف ، ويصورها أتم تصوير ، حتى إذا فرغ من البواطن انتقل به الكلام الى الظواهر فراقبها وتأمل فيها ، واستخرج منها صفاتها البارزة ، وخصائصها الظاهرة . فهو فيلسوف حكيم يبنى علمه على تجربته ، ثم يصف ما توحى اليه هذه التجربة .

لا نعرف فيما قرأنا حياة أوسع آفاقا من حياته العقلية ، وذهنا أخصب تربة من ذهنه ، وفكرا أشد انطلاقا من القيود من فكره ، لقد ذاق لذة الحياة العقلية ، وتقلب فى أعطافها ، يخالط عالم الأفكار فلم يستوحش ناحية من نواحيه ، وما كان عقل الفارابى يأنس إلا بضياء الأشياء ، وما كان هذا العقل ينقبض إلا عن ظلامها ، فما كان غذاؤه إلا الأفكار والمعانى .

والخلاصة فى شخصية هذا الفيلسوف : أن الحكمة تلقته من كل جهة بفضلها ، وتألقت فيه أكرم نبعاتها ، حتى استخلص منها أعتق جواهرها ، ثم سما الى رحيق مصاصها ، وأحرز منفس ذخائرها . كل ذلك فى كتابه المدينة الفاضلة .

تعهد نفسه بمجاهدة هواه ، لأن الهوى خصم العقل ؛ وانصرف الى أعمال الحكمة ، فطوى الحياة عاكفا زاهدا فقيرا ، قانتا لله وللعلم ، حتى كتب اسمه فى ديوان الخالدين ؟

عبد الحميد سامى بيومى

صفحات مختارة لأقطاب الفلسفة العصرية

الدين هو الكوة التى ينبع منها النور للانسان

هذا ما صرح به الفيلسوف الكبير اجوست سباتييه المدرس بجامعة باريس
فى كتابه (فلسفة الدين) — تحليل بسيكولوجى دقيق

« ما هو الانسان ؟ إنه من الناحية الظاهرية لايفترق كثيرا عن الحيوانات العليا ، ولكنه بحياته العقلية يتميز عن الحيوانيـة ويتخلص منها يسيرا يسيرا . وهنا تظهر فيـه ظواهر ونواميس من نوع جديد . فان الحياة الغـامضة للعقل تتفتح رويدا رويدا كأنها زهرة إلهية فتطلعنا من الوجود على معناه وجماله ، وفى الوقت نفسه تتضح لضميرنا منطقة الحق والجمال والخير ، ويتجلى له العالم الادبى كوجود عال هو عالمه الذى ينتسب اليه . فهذه النواميس هى التى تصلح أن تسطو على النواميس الطبيعية ، وأن تقهرها لتوصلنا الى غايات سامية ، هى التى تحقق وتؤلف للحيوان الانسانى معنى الانسانية . فالانسان لا يستحق وصف الانسانية إلا بقدر ما يطيع هذه النواميس العليا ، وهذه هى نقطة الاتصال التى يشغلها بين هذين العالمين ، وهذا وجه ضرورة الآلام التى بواسطتها يجب أن يتخلص من الحيوانية الأصلية . فانه إذا لم ينجح فى أن يعلو عن مستوى الحيوانية ، وقع بفساد حياته الى حضيض أدنى منها .

« الحياة النفسية تقتضى بأصل تـكوينها حركتين ، أولاهما تحدث من الظاهر الى الباطن حتى تصل الى مركز الذات الانسانية ، وثانيتهما من الباطن الى الظاهر ، أى من مركز الذات الى الخارج .

« الحركة الأولى هى تأثير الأشياء الخارجية على الذات الانسانية بواسطة الاحساس ، والثانية هى رد فعل للذات على تلك الأشياء بواسطة الارادة . فهذان التياران الباطنيان يؤلفان الحياة العقلية فى جملتها . من هنا يتبين الانسان التضاد الأساسى الذى تتـكون منه الحياة ، والذى يقوى ويشتد بدون انقطاع . وفوق هذا فإن الجانب السلبى والجانب الايجابى للحياة العقلية ليسا متلائمين ، فإن الإحساس يسحق الارادة ؛ ونشاط الشخصية وتفتحها وميلها للامتداد والنمو ترزح تحت أعباء الوجود التى تقع عليها من كل جانب . حتى إذا اندفعت موجة الحياة من مركز الذات ، تكسرت على صخور الأشياء الخارجية . فهذا التصادم المستمر ، وهذا الـكفاح بين الذات الانسانية والعالم الخارجى ، هو السبب الأول الأصلى لجميع الآلام البشرية ، وبهذا

تجد نشاط تلك الذات بارتداده على نفسه تشتد حرارته كما تشتد حرارة محور العجلة من شدة الحركة . إذا حدث هذا لمعت شرارة الحياة الباطنية وأضاءت . وهذا هو الضمير ، وبتكرر هذا الاحساس المؤلم للخيبة المتوالية تلجأ الذات للفكر والتأمل وتدرك ماهيتها ، وتقدر نفسها ، وتنفصل عن الجسد الذى كانت لا تتميز عنه ، وتبدأ فى معارضة نفسها بنفسها كأنها مؤلفة من شخصيتين ، شخصية مثاليـة ، وشخصية عادية . ومن هنا ينشأ عذابها وكفاحها وندمها ، ولـكن ينشأ فيها الى جانب ذلك اندفاعها المتجدد ، وترقيها غير المحدود فى الحياة العقلية ، بحيث تكون فى كل برهة لها درجة تؤديها الى درجة أرقى منها . ألسنا نلمح هنا النفحة الإلهية التى يستوجبها لنا هذا الألم ؟ إنه بدون هذا الألم كان لا يمكن أن تتميز الحياة العقلية عن الحياة المادية . ولا غرو فـكل ميلاد لا يكون إلا بألم . والضمير كالطفل لايولد إلا غارقا فى الدموع . ولما كان الضمير ابن الألم فقد قضى عليه أن لا ينمو إلا به . فهل نصادف أعظم العقول تلطفا ، وأكثر الضمائر حـدة ، وأشد ضروب الحياة تركزا ، إلا لدى آحاد شَل نشاطهم الخارجى بسبب مرض ، أو حرج فى حالتهم الاجتماعية ؟ فـكيف تستطيع أن تعلل وجود (أفـكار باسكال) و (مين دوبيران) و (يوميات أمييل) بغير هـذه العلة ؟ من أين جاء لهؤلاء الرجال سمو ضمائرهم الخارق للعادة إن لم يكن من هذه الناحية ، وهى أنهم شعروا شعورا عميقا بالتضاد الذى بيناه هنا بين العوامل المنصبة على الانسان ، ورأوا أنها كما توجب عليه الشقاء والبلاء ، تدفعه الى العظمة والسمو .

« استمرْ فى هذا النظر ، وتتبعْ كل واحدة من خصائصنا وهى تتفتح وتنمو ، تجدها قـد نشأت من هذا التضاد الذى رأيته ، فإذا لم يكن هو لم توجد هى . على أنه يسطو عليها حتى يكاد يقتلها بعد ظهورها ، ولا تجد أينما وجهت طرفك إلا هذا التضاد المؤيس .

« والإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه إلا إذا أدرك أنه محدود ، ولـكنه لا يشعر بهذه الحدود إلا بعد أن يجتازها بفـكره وإرادته ، بحيث أنه أصبح لا يقنع بما يملـكه ، ولا يسعد إلا بما لا يستطيع أن يناله . فأرانى أريد أن أعرف ، وعقلى متعطش لأن يفهم ويعـلم ، فإذا وصلت الى مكـتشفات أولية أسرتنى ، ولـكن وأسفا لا ألبث حتى يصطدم فـكرى بغامض فيما حصلتُ . فالأمر لا ينحصر فى أنه توجد أشياء لايعرفها عقلى ، ولـكنى متحقق أن هنالك أشياء لا يستطيع أن يعرفها عقلى قط . فأنَّى للانسان أن يقفز الى ما بعد ظله ، أو أن يصعد على كتفىْ نفسه ليرى ما وراء السور الذى لا يستطيع أن يقتحمه ! وأنا أريد أن كل ما يمكن إدراكه يكون حقيقيا ، ولـكن هل كل ما هوحقيقى يمكـننى أن أدركه ؟ إذن على أية حال يؤول علمى إن لم يكن الى شعور ماليخولى لجهالة تدرك نفسها على هذا الوصف ؟

كذلك أجد تناقضا فى خاصة تمتعى . فـكما أفضَى الساعةَ علمى الظاهر الى عكسه ، كذلك أرى كل ما أسميه متعة وسعادة يتحول الى شـقاء وتألم . فليتهم السطحيون والعامة الحظ

والخوادع والتقصير فى عـدم وصولهم الى السعادة ، ولـكنى أنا لا أتهم إلا التركيب الصميم لـكيانى ، فانه بسبب هـذا التركيب نفسه تحمل المتعة فى ثناياها سبب زوالها ، ويستحيل الصفو فيه الى كدر ، وتخرج حُمَـة الألم من وسط اللذة . (الحمة إبرة العقرب ونحوها)

« لقد أصاب مذهب التشاؤم فى هذا الموطن ؛ فقد ثبت بما لا يُدحض من التجارب بأن التفانى فى البحث عن السعادة لا نتيجة له إلا زيادة قابليتنا للتألم . وهل ألم بذكر النشاط الأدبى ؟ إنى أريد أن لا أفعل غير الخـير ، ولـكنى أجد الشر لى ملازما ، فلا آتى كل ما أرتضيه ، ولا أرتضى كل ما أفعله . إنى أشعر بالحرية فى إرادتى ، ولـكنى أحس بذل الأسر فى عملى . وكلما جهدت أن أصل الى المثل الأعلى فى العدالة ، سَجل علىَّ هذا المثل الأعلى الذى لا أصل إليه أبدا أنى آثم ، وقوَّى فى نفسى الشعور بالإثم ، بحيث تصبح هنا ، وهنا على الخصوص ، الثمرة النهائية لمحاولاتى عكس ما كنت أتمناه من قبل .

« فمن أية ناحية يأتينى الخلاص ؟ كيف السبيل الى حل هذا التضاد فى ذاتى ، وهو التضاد الذى يحيينى ويميتنى فى آن واحد ؟ من الناس من يعتمدون فى سبيل تخليص الانسان من فاقاته وعقباته ، على تقدم العلم وصلاح أحوال الحياة . ولـكن كيف لايرى هؤلاء هنا ، نشوء ينبوع جديد من ينابيع القنوط ؟ كيف ينسون أن العلم بتقدمه يزيد فى التناقض الأساسى للحياة ويجعله أقتل مما هو عليه ، بدل أن يخفف من وطأته ؟ فهل حدوث اكتشاف جديد ، أو تعليل ظاهرة جـديدة ، يعنى شيئا غير إضافة ذلك الى سلسلة العلل الضرورية التى ينسجها العلم ويمدها على أشياء الـكون ؟ هل يعنى ترتيب العلم للـكائنات وتقرير نظامها وثباتها ، شيئا غير إثبات سيادة القهر عليها سيادة مطلقة . فالعلم جبرى بالمعنى الدقيق لهذه الـكلمة . فزدْ ما شئت من هذا الترقى العلمى ، وأبلغه الى عشرة أو مائة أو الى ألف ضعف ، فهل أنت بذلك صانع شيئا غير مضاعفة سلطان الجبرية العـامة التى تخضع لها أرواحنا وينحل دونها نشاطنا الباطنى ؟ وإذ ذاك تنتهى الى زيادة إدراك التضاد المؤلم بين العلم والضمير ، وبين النواميس المـادية والنواميس الادبية ، وبين الفـكر والعمل ! وبقدر ما ينمو أولهما ويتغلب ، يظهر لنا ثانيهما باطـلا لا حقيقة له . من هنا نشأت هذه الثنوية الفلسفية التى انتهى اليها الفـكر العصرى ، من قيام علم يعجز عن توليد أخلاق يمكن أن يعترف بها الناس ، وقيام أخلاق يمكن أن يعترف بها العلم . إننا بهذا التحليل قد وصلنا الى علة هذا المرض العجيب الذى يمـكن تسميته « بمرض القرن الراهن » ، وهو ضرب من الانحلال الباطنى الذى أصاب العقول المستنيرة على درجات شتى . فهو حرب باطنية تسلح الذات الانسانية ضـد نفسها ، وتُنضب ينابيع الحياة فيها . فبقـدر ما يفـكر الانسان فى إيجاد البواعث للحياة والعمل ، يقل نشاطه للجهد والعمل . فاستضاءة الفـكر هى على نسبة عكسية مع قوة الارادة ، حتى ليقول أنصار التشاؤم بأن وصـول الضمير الى قوته

وكماله يبطل فينا حب البقاء والرغبة فى العمل . ومن الذى يتجرد اليوم من التشاؤم على قدر من الأقدار ؟ ومن الذى لا يشكو اليوم من ثقل وطأة الفكر عليه ، ومن ضعف تأثير الطبيعة فيه ؟ ومن الذى لم يشاهد هذا الازدواج الغريب الذى كاد يكون عاديا ، بين خفة الأخلاق والذكاء الممتاز ؟ ما هى هذه الشكوى المملة التى تتصاعد من كل ناحية ممثلة فى أحدث كتاب فى الفلسفة ، أو أعلق رواية بالقلوب ، أو أحسن قطعة تمثيلية ، إن لم تكن هى الأنين الماليخولى المنبعث من حياة يظهر أنها قريبة من الانطفاء ، ومن عالم عتيق آيل الى الفناء ؟ فهل يحسن بنا أن نقلع عن التفكير لنحتفظ بالقوة على البقاء ، أو أن نصبر للموت لنستبقى الحق فى التفكير ؟

« من هذا الشعور بالحرج الشديد ، وبالتضاد فى الحياة الباطنية للنفس يتولد الدين ، فهو الكَوَّة (١) التى ينبع منها النور المحيي للانسان من خلال الصخور المطبقة عليه . (٢)

محمد فريد وجدى

(١) الكوة بفتح الكاف وضمها الخرق فى الحائط . (٢) ننشر بقية هذا البحث الجليل فى العدد المقبل .

البراءة من الاحمدية الهندية

الموقعان على هذا ، أيوب فضلى قرانيا وخليل يونس ربيشطى من أهل ألبانيا : يقرران ويعلنان براءتهما من فرقة الأحمدية اللاهورية والقاديانية ، فقد ظهر لهما بطلان مذهب الأحمدية ، وبطلان ادعاء زعيمها ميرزا غلام أحمد القاديانى الهندى ، النبوة ، أو أنه المهدى المنتظر ، أو المجدد ، أو المسيح الموعود ، وتأويلاته لآى القرآن الكريم بغير علم ، إشباعا لرغباته ، ودعاية لذاته . وقد لمسا أضرار هذه الفرقة بجماعة المسلمين وتمزيقها لوحدتهم وهذا هو الخسران المبين .

فالموقعان يستغفران الله تعالى عما فرط منهما بغير علم ، ويعلنان أنهما قد قطعا كل علاقة وصلة من أى نوع كان بهذه الفرقة وغيرها من الفرق ، طائعين مختارين ، ابتغاء وجه الله ، عن عقيدة وإيمان من قلب خالص ملىء بالتقوى وطاعة الله لا يشوبه نفاق ولا رياء . ويسألان الله تعالى أن يوفقهما لما فيه الخير والعمل بكتاب الله وسنة رسوله سيدنا محمد خاتم النبيين من لا نبى بعده صلى الله عليه وسلم والله على ذلك شهيد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(أيوب فضلى قرانيا) ، (خليل يونس ربيشطى)

الاسلام والمرأة

لقد أنصف الاسلام المرأة ، ورفع من شأنها ، ووضعها فى مكانتها اللائقة بها ، بعد أن كانت مهيضة الجناح ، مهضومة الحقوق ، يسيطر الرجل عليها ويعاملها معاملة الأنعام .

فـلا تجد نظاما اجتماعيا سابقا على الاسلام أخذ بيـد المرأة وفرض لها من الحقوق والواجبات ، مثل ما فرض لها الدين الحنيف ، دين الاسلام ، الذى اختاره الله لخير أمة وخير نبيّ ، وجعله صالحاً لـكل زمان ومكان ، تسير الحوادث بجانبه ، وتمشى المصالح إثر أصوله وفروعه ، وترقى الأمم بالأخذ بتعاليمه .

كنت تشرّق أو تغرب فلا ترى المرأة إلا سلعة ينتفع بها ، أو متاعا يستمتع به ، ولا حول لها ولا طول ، ولا كلمـة تسمع ، ولا رأيا يعتد به ، حقيرة ذليلة ، ميّتة وهى فى عداد الأحياء ، مسلوبة الإرادة ، مهدرة الـكرامة ، قعيدة البيت لا ترى شمسا ولا قمرا ، ولا تشم نسيما .

جاءها الاسلام فأخرجها من الظلمات الى النور ، وانتشلها من وهدتها وأعطاها حريتها ، بعد رقّ واستعباد فى البلاد التى تدّعى الآن أنها مصدر المدنية ومبعث الرقى ، فأمم جهلت قدرها ، وأمم سجنتها ، وأمم احتقرتها ، والـكل اشتط فى ظلمها ، وجار فى حكمه عليها ، وظلت المرأة هنا وهناك تضج بالشكوى الى الله ، وتتضرع اليه فى أن ينقذها ويخلصها ، وقد وأدوها طفلة ، وعضلوها شابة ، وأساءوا عشرتها زوجة ، ومنعوها إرثها ، وحرموا عليها النكاح أيّما .

وبينما الناس كلهم مطبقون على هذه الحال ، إذا برسول يبعث الى الناس كافة ، على فترة من الرسل ، يهيب بالناس الى إقامة دولة العدل ، وإلغاء نير الظلم ، وإزالة كسف الجاهلية ، وتقرير حقوق الضعفاء على الأقوياء حتى يـكون الناس سواسية كأسنان المشط : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فنال المرأة من هذا الإصلاح العام قسط موفور ، فرفع عنها كل ما ألقاه عليها الظلم والجهل مما ناءت بحمله قروناً طويلة فى عهود مختلفة ، وأمم متباينة ، وثنيّة كانت أو كتابيّة أو جاهليّة . ففى الأخيرة مثلا : ورثوا النساء كرها : يجىء الوارث ويلقى ثوبه على زوج مورثه إن لم يكن منها ويقول : ورثتها كما ورثت ماله . وبذلك يكون أحقّ بها من نفسها ، إن شاء تزوجها بلا مهر أو زوّجها غيره واستوفى مهرها ، أو منعها حقها فى النـكاح ليرثها . اجتثّ الاسلام هـذا الإرث الجائر من أصله : « يأيها الذين آمنوا لا يحل لـكم أن ترثوا النساء كرها » .

ثم شرع لها ما حماها من غائلة المتحكمين فيها ، فحرم على الرجال أن يعضلوها لتتنازل لهم عن ميراثها ، وعن حجب الرجل فتاته الى أن تتخلى له عن ملكها ، وكذا المطلّق مطلقته ليأخذ منها ما يريد ويشتهي ، وعن امتناع الزوج المبغض زوجته المحب فراقها عن تسريحها بالإحسان ، وعن إساءة عشرتها حتى تبلغ روحها الحلقوم ، فتفتدى بمهرها : « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن »

وحرم على من له أكثر من واحدة أن يرفع بعضهن على بعض ، وأن لا يعدل بينهن ، فقال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » :

ونهى أن يرمى الرجل امرأته بكل نقيصة توسلا بذلك الى التخلص منها والتزوج بغيرها ، متهما إياها بالفاحشة لتفتدى بما دفع لها محاماةً عن عرضها وذوداً عن كرامتها ، فنبّههم الله جل شأنه الى أن هـذا العمل ظلمٌ وبغيٌ تأباه النفوس الكريمة : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » .

وقد اهتمت الشريعة الاسلامية بالمرأة اهتماما كبيرا ، جعلها سيدة مكرمة محترمة ، راعية مسيطرة : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . وفى وضعها بين الامام والرجل لا بين الرجل والخادم تنويه بشرفها وتحقيق لمكانتها وقدرها .

عطفت الشريعة عليها ، وراعت جانبها ، وقررت كل ما يريحها ويسعدها نظرت بعين ملؤها الرحمة والنَّصفة الى المرأة ، وراعت ما تقوم به من تكثير النوع وتربيته ، فألزمت الرجل بنفقتها والقيام بجميع ما تحتاجه من لوازم الحياة : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » : أى فى القوة والقدرة على العمل والكسب . « وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

طالبت الشريعة الرجل بالمحافظة على زوجته من مواطن المخافة وأمكنة الهلكة ، وأمرته بتعليمها ما يجب عليها وقاية له ولها من النار : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » الآية .

قضت عليه الشريعة الاسلامية السمحة بأن يوفّيها صداقها ، وتوعدت من لم يكن عازما على أدائه اليها : « أيما رجل تزوج امرأة على ما قلّ من المهر أو كثر ليس فى نفسه أن يؤدى اليها حقها خدعها فمات ولم يؤد اليها حقها ، لقى الله يوم القيامة وهو زان »

وطلبت الشريعة من المرأة فى نظير ذلك أن تتوقى هجر فراش زوجها ، وألا تاذن فى بيته لمن لم يرغبه ، وألا تخرج من بيته بغير إذنه ، إلا إذا دعت ضرورة شرعية كخشية انهدام البيت ، أو خوف فجرة ، أو استفتاء لم يوفره لها .

هـذا قل من كثر مما أوجبته الشريعة الاسلامية الغراء المرأة . فهل آن لأعـداء الاسلام أن يتلقوا عنه دروساً حية فى الإنصاف والعـدالة ، ويتركوا ما رموه أو يرمونه به من المثالب ، باتهامه أنه هضم حقوق المرأة وجعلها فى منزلة أدنى من درجتها التى تجدر بها ؟ ! كما أنهم عدُّوا أمر حجبها عن أعين الأشرار ، وعدم مخالطتها للفسقة الفجار ، أمراً نكراً ، وخطباً فادحاً ، ومعولا يهـدم بنـاء المجتمع البشرى ويقوّض دعائم المـدنية ! ولو تدبروا قليـلا ونظروا بعين البصيرة ، وفكروا واعتبروا ، لتـكشفت لهم الحقيقة ، ولظهر لهم البرهان تلو البرهان أنهم عن الحق عمون ، وفى الضلال يهيمون .

أوجب الاسلام على الرجل لزوجته حقوقا لخصتها إجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله معاوية بن حَيـدَة رضى الله عنه : ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبّح ، ولا تهجر إلا فى البيت » . ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم » .

انظر معى بارعاك الله فى التوارث الذى مُنحته المرأة فى الاسلام وكانت محرومة منه قبل : فالوارثون إن كانوا ذكورا أو إناثا فى درجة واحدة وزع المـال بينهم بالتساوى لعدم وجود مايدعو لتقديم واحد منهم على آخر ؛ وإن كانوا ذكورا وإناثا فى درجة واحدة فضل الذكر على الأنثى بجعل حظه مثل حظ الأنثيين ، لأمرين : أحدهما أن الذكر مختص بالدفاع والحماية عن البيضة ، والذب والمنع عن الذمار ؛ وثانيهما أنه ملزم بالإنفاق فوق ما يلزم الأنثى التى هى كَل على الزوج أو غيره . والأب لا يفضل على الأم بالتضعيف لأنه فضـل عليها بالجمع بين الفرض والتعصيب ، فلو فضل عليها بالتضعيف أيضا لـكان فى ذلك إجحاف بها وبغى عليها . وفى مسائل أخرى تأخذ الأنثى مثل الذكر . وقد يكون نصيبها أكبر منه فى بعض المواضع . وهكذا تقرأ باب الفرائض والمواريث ، فيأخذك العجب ، وتتولاك الدهشة أمام إنصاف الاسلام للمرأة ، هذا الانصاف العظيم الشأن الذى لم يأت به نظام اجتماعى قبله ، ولم تعرفه أمة من الأمم الغابرة التى كانت تستعبد المرأة وتصادر حريتها ، وتعدها من سقط المتاع . وحين انبثق نور الاسلام ، وطلع فجره من الشرق يمزق ستر الـكفر ، ويشقق غياهب الباطل ، انتشر نور الحق فى أنحاء المعمورة ، وأخذ كل شيء فى الوجود حقه ، ونودى فى الـكل : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟

السيد متولى الشهاوى
بتخصص القضاء الشرعى

المحاماة قديما وحديثا

مقارنة بين عهدين

في بعض أعداد سابقة من هذه المجلة أبنا لقرائها ما كان عليه المحامون في عهد الأمبراطورية الرومانية ثم في عهد اليونان ، وكيف أن تلك المهنة تطورت حتى بلغت أوج مجدها وسؤددها ، فأنبتت خطباء ملكوا على البلاغة أعنتها ، واقتعدوا منها غوارب المجد حتى بلغوا القمة .

ولقد بلغ من سمو تلك الصناعة في عهد الرومان أن كان لا ينتخب لشغل منصب الولايات في الأمبراطورية إلا من المحامين ، ومن ذلك الحين صدر أمر بتحديد عدد المحامين في كل مقاطعة من أطراف الأمبراطورية ، فلا ينتخب لولاية الخزينة العامة إلا منهم ، فاذا قضى الواحد منهم مرة انتخابه عين في وظيفة سامية ، وأصبح معدودا في مصاف أعضاء شورى الدولة .

ومن أشهر القوانين التي وضعت لرفع مستوى المحاماة ، وحياطتها بسياج الإجلال والاكبار ، ذلك القانون الذي سوّى بين رجال المحاماة ورجال الجيش ، ومعلوم أن رجال الجيش في ذلك العهد الروماني كانوا أكبر القوم وأعزهم جاها وأرفعهم شأنا . ولعل الباعث على هذه التسوية بين رجل المحاماة ورجال الجيش ، وهم من مكانة الأمة في الذروة ، أن الملك أدرك أنه لافرق بين من يحمي الذمار ويصد عن البلاد غوائل العدو ، وبين المحامين الذين يدافعون عن المظلومين ويستردون اليهم حقوقهم من أيدي الغاصبين بألسنتهم وأقلامهم وبالغ حججهم ، فكانوا خلقاء أن يسووا برجال الجيش الذين يعتبرون أعلى مثل في الأمبراطورية الرومانية للتضحية والبلاء والجهاد والدفاع عن حوزة الوطن .

ولذلك أمر أحد ملوك الرومان أن ينعم على كل محام يعتزل تلك الصناعة ، بعد أن أدى الى الأمة خدمات جلى وأسدى الى بلاده سميا يذكر ، بلقب من ألقاب الأشراف في الدولة . وهو لقب (كلا يسيم) ، ومعناه في اصطلاحهم يومئذ (النبل والشرف) .

أما ما يتعلق بأهلية الشخص لمزاولة تلك الصناعة فقد اشترط قانون البلاد لتحقق تلك الصفة في المحامي ، أن يكون المحامي سنه على الأقل سبعة عشر عاما ، وأن يكون قد درس علم الحقوق خمس سنوات ، وأن يؤدي الامتحان في علم الحقوق أمام محاكم الجهة التي يريد الإقامة بها ، أو أمام محامي المدينة ، ولا بد أن يكون حسن السلوك طيب السمعة ، حتى إنهم كانوا يسألون عن سيرته وسلوكه بطريقة علنية في حضرة جمع من الأهلين من سائر الطبقات ، ويجب أن يسبَق ذلك الاجراء الأخير بأن يكون المتخصصون في علم الحقوق من الأساتذة والمشترعين قد شهدوا له بالكفاية وسلاسة الادراك ، وبداهة الحجة ونصوع المحجة .

والمبالغة فى قصر صناعة المحاماة على الطبقات الممتازة فى كفايتها ، منع كثير من أوشاب الناس ودهمائهم من الاشتغال بها .

كذلك قد أبيح للنساء أن يدافعن عن غيرهن بادئ ذى بدء ، وبقيت هذه الاباحة قائمة فى الدولة زمنا غير يسير ، لكن حدث أن بعض أولئك النساء دخل قاعة الجلسة على صورة تدعو الى الاستهتار بما يجب أن يكون للقضاء من حرمة ووقار ، فصدر قانون يحظر على المرأة أن ترافع حتى عن نفسها ، غير أن ما بدا يومئذ من اشمئزاز بعض الطبقات من هذا الاجراء العتيق جعل هذا الحظر مخففا ، فأبيح للمرأة أن تترافع عن نفسها دون غيرها .

وهذا دليل آخر على أن أباطرة الرومان وملوكهم ، أحاطوا صناعة المحاماة بحياطة التكريم والتمجيد ، ولذلك كان آباء الشبان الذين يريدون الاحتراف بالمحاماة يرافقونهم أول مرة الى مكان الاجتماع فى موكب حافل ، ويقدمونهم الى مجلس الأعيان ليقرر بدوره أولئك الشبان فى سلك رجال المحاماة ، وقد بلغ من احتفاظ الرومان بقدسية هذه المهنة واعتبارها مع وظيفة القضاء فى كفتى ميزان ، أن يحلف كل محام وكل قاض عند نظر كل قضية على حدتها من القضايا المعروضة ، على ألا يقول المحامى إلا الحق ، وعلى ألا يقضى القاضى إلا بالحق ، وكل منهما يقوم بدوره فى جلسة القضاء عند نظر كل قضية .

ولقد كانت تقاليد الرومان فى بعض جزئياتها يومئذ غريبة ، وإن كانت فى هذا العصر قد بدت رغبة يسعى إليها ويعمل على تحقيقها ، فقد كان عدد المحامين يومئذ محدودا ، وقد رأى المهيمنون على مرافق الدولة تلقاء هذا التحديد ألا يقبل محام فى سلك المحامين إلا إذا خلا مكان بموت أو نحوه ، وكان يؤثر بالتقديم أبناء المحامين مكافأة لآبائهم واعترافا لهم بما قدموا الى العدالة من أثر مشكور . لكن هذا الاجراء كان مسبوقا بظاهرة وإن بدت غريبة إلا أنها طريفة ، فقد أباحوا أولا للخصوم وأرباب الدعاوى أن يختاروا المحامين عنهم تحريا لأفضل وجوه الطمأنينة التى يجب أن تتوافر بواعثها فى قلوب المتقاضين ، لكن بدا بالتجارب الطويلة أن ذلك الاجراء لم يؤد ثمرته المرجوة له ، بل بالعكس أفضى الى تشعب فى الآراء والتواء فى الميول ، فعمل على محو تلك الظاهرة وأقر مبدأ تحديد عدد المشتغلين بالمحاماة على ما أسلفنا بيانه .

وسوف نحاول فى أعداد تالية أن نضع أمام حضرات القراء مثلا عليا فى قديم الزمان وحاضره لأفضل تراث خلفه أسلافنا ، لننهج عليه من بعدهم ، ولنكون قدوة صالحة لخلوفنا من بعدنا ، فإلى الغد القريب ؟

عباس طه

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

الأمور الخارقة للنواميس الطبيعية فى وقعة بدر

تمتاز العصور النبوية ، بالخوارق للنواميس الطبيعية ، فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل ، كان لها أقوى تأثير فى حمل الشعوب التى شهدتها على الإذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم . وقد حدثت أمور من هذا القبيل فى العصر المحمدى ، صاحبت الدعوى فى جميع أدوارها ، وكانت أعظم شأنا وأجل أثرا ، من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ما تناقله النـاس من شق الصدر ، وتظليل الغمامة ، وانشقاق القمر ، وما اليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس ، أو مما يتأتى توجيهه الى غير ما فهم منه ؛ ولكنى أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يد محمد صلى الله عليه وسلم فى أقل من ربع قرن . وقد أعوز أمثالها فى الأمم القرون العديدة ، والآماد الطويلة .

وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نكتبه فى هذه السيرة ، على أن لا نسرف فى صرف كل حادثة الى ناحية الاعجاز ، ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية ، حتى ولو بشىء من التكلف ، مسايرة لمذهب المبالغين فى التثبت ، والمحافظين على إقامة الدستور العلمى ، ثقة منا بأن بحثا لا تحترمه النخبة المثقفة ، ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى فى عرض المسائل وتحليلها ، لا يمكن أن يؤدى الى ما قصد منه من الخدمة العامة .

وقد أتيت بتاريخ وقعة بدر التى كان لها شأن عظيم فى كسر شرة أنصار الجاهلية ، والطأمنة من خيلائهم وكبريائهم ، ولم ألم بما صحب هذه المعركة من الأمور الخارقة للطبيعة ، فأحببت أن لا يفوتنى التنويه بها ، لأنها من قبيل الحوادث المحسوسة . ولأجل أن نعرضها على وجهها الكامل لنتبين وجه إعجازها ، نأتى على الآيات التى وردت فى شأنها من الكتاب الكريم ، قال الله تعالى فى سورة آل عمران : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله



لعلكم تشكرون » الى قوله تعالى : « ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين . ليس لك من الأمر شيء ، أو يتوبَ عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » . يذكّر الله المؤمنين بما أمدهم به من عنايته إذ نصرهم فى موقعة بدر ، وهم قليلو العدد لا يغنون عن أنفسهم شيئا . ومراده من ذلك أن يبيد طائفة من الذين كفروا ، أو يخزيهم ويغيظهم ، فينقلبوا خائبين . ثم وجه الحق سبحانه القولَ الى رسوله فقال : ليس لك من أمر تدبير العباد شيء ، فامض لما يوجهك الله اليه ، فانه هو الذى يدبر أمر خلقه ، فإما أن يتوب عليهم وإما أن يعذبهم على أعمالهم فانهم ظالمون .

وقال تعالى فى سورة الأنفال مشيرا الى وقعة بدر : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم (قافلة التجارة أو جيش المشركين) ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يُحق الحق بكلماته ويَقطع دابر الكافرين . ليُحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردِفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يُغَشيكم النعاس أَمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » الى قوله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميتَ إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم . ذلكم ، وأن الله موهن كيد الكافرين . إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين » .

معنى هذه الآيات : اذكروا إذ وعدكم الله النصر على إحدى الطائفتين : قافلة التجارة أو جيش المشركين ، فوددتم أن يكون نصيبكم غير ذات القوة منهما ، ولكن الله يريد أن يظهر الحق بكلماته ، أى بكتابه ، وأن يستأصل الكافرين . لينصر الحق ، ويزيل الباطل ، ولو كره ذلك المجرمون . واذكروا إذ تطلبون الإغاثة من ربكم بسبب كثرة عدوكم ، فاستجاب لكم ووعدكم بان يمدكم بألف من الملائكة متتابعين . وما جعل الله هذا المدد إلا بشرى لكم ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، لا بقوتكم ولا حيلكم . واذكروا إذ جعل الله النعاس يغشاكم وأنتم وسط ذلك الخوف ، ليذيقكم نعمة الأمن ، وأنزل لكم من السماء ماء ليروى ظمأكم ويطهركم به ، وليذهب عنكم وسوسة الشيطان ، ويحليكم برباطة القلب ، ويثبت أقدامكم حين تلتقون بأعدائكم . واذكروا إذ أوحى ربكم الى الملائكة أنى معكم فثبتوا المؤمنين فى الحرب ، سألقى فى قلوب الكافرين الرعب ، الخ . وقد عدتم من وقعة بدر تفتخرون بعدد من قتلتموهم ،

والحقيقة أنكم لم تقتلوهم ، ولكن الله هو الذى قتلهم ، وما رميتَ يامحمد حين رميتهم بحفنة من الحصباء قائلا شاهت الوجوه ، ولكن الله هو الذى رمى ، وقد امتحن الله المؤمنين بهذه النعمة ، ذلكم كان القصد ، والله مضعف كيد الكافرين . إن تستفحوا أيها المشركون ، أى إن تطلبوا النصر على المؤمنين ، فقد جاءكم النصر (الكلام مسوق على سبيل التهكم) ، وإن تقلعوا عن شرككم فهو خير لكم ، وإن تعودوا لمحاربة المؤمنين نعد لنصرتهم عليكم ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ، وإن الله مع المؤمنين .

الذى يتأمل فى هذه الآيات يدرك منها أمورا لا يمكن التردد فيها :

(أولها) أن المسلمين فى وقعة بدر كانوا قليلين وناقصى العتاد ، بحيث كانوا لا يأملون الانتصار على عدوهم فى كثرة عَدده واكتمال عُدده ، وقد عبر الله عن حالتهم ذلك اليوم بأنهم كانوا (أذلة) ، والانسان لا يشعر بالذل إلا فى حالة العجز واليأس . فاذا لم يكونوا يشعرون بأنهم كانوا ذلك اليوم أذلة ، ساء ظنهم فى الوحى ودخلهم الشك فى مصدره .

(ثانيها) أنهم كانوا ، وهم رجال حرب وجلاد ، لا يتوقعون النصر يوم بدر إلا إذا جاءهم من طريق الاعجاز ، ويدل عليه قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم إنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . ولو كان الأمر ذلك اليوم عاديا لا يتطلب العون الإلهى المباشر ، لكان فى ذكر المدد الملكى هنا ، توهين للدعوة الاسلامية عند أهلها وعند خصومهم .

(ثالثها) أنهم انتصروا على أعدائهم نصرا مؤزرا ، وهم يعتقدون أنهم مُنحوه منحا ، ولم يستحقوه بقوتهم استحقاقا ، بدليل قوله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . ذلك أن رجالا منهم عادوا من المعركة يذكرون أسماء من قتلوهم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم عند بدء المعركة تناول حثوة من الحصباء ورمى المشركين بها قائلا : (شاهت الوجوه) ، فردعهم الله عن إسناد هذا النصر وما اقتضاه الى أنفسهم ، وأمرهم باسناده الى الله وحده . ومراده أن يعرفوا أنهم لو كانوا تُركوا وشأنهم بدون تأييد سماوى ، لما تمكنوا من قتلهم والتغلب على من بقى منهم . وهذا إذا لم يكن صحيحا فى تقدير رجال الحرب المحنكين ، وناهيك بعرب الجاهلية ، لكان تأثيره فى قلوب سامعيه عكسيا ، أى أنه كان يصد عن الايمان بصحة الاسلام ، ويوقر فى صدور الناس أنه يعتمد على الابهام ، وتجسيم الحوادث ، لكسب الأعوان والانصار لأغراض دنيوية باحتة .

وإذا كان الأمر على ما رأيت فان هذه الموقعة جديرة بأن يكون لها من الأثر فى تثبيت إيمان المؤمنين ، وتوثيق ارتباطهم بالاسلام ، ما عُزى إليها . وقد أشاد المسلمون بذكرها ، ونوهوا بشأنها ، ما لم يفعلوه بجميع ما تلاها من الوقائع ، حتى إنهم دونوا أسماء من شهدها من المسلمين الأولين ، وذكرها الشعراء فى أشعارهم . قال أبو تمام الطائى فى بائيته المشهورة

التى مدح بها المعتصم ابن الرشـيد عقب انتصاره العظيم على أمبراطور الرومان تيوفيل سنة (٢٢٣) للهجرة :

ما بين أيامك اللائى نُصرت بها وبين أيام بدر أقربُ النسب

***

وإذا قلبنا هـذه المسألة على وجه ثان وجدنا أن جانب الاعجاز فى هـذه الموقعة يتجلى بمرجحات من نوع آخر . ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما ندب أصحابه لملاقاة قافلة التجارة التى لقريش ، لم يأخـذوا أهبتهم لقتال ، ولـكن لمنازلة عصابة من الحراس . والتأهب لمثل هذا الشأن غـير التأهب لملاقاة جيش محارب . فاذا كان منازلة العصابة لا تقتضى أكثر من الهجوم عليها بالاسلحة الخفيفة واغتصاب ما بيدها ، ثم تشريدها وأسر من يقع فى اليد منها ، فان مكافحة جيش يستدعى التذرع له بجميع ما للحروب من أُهَـب آلية ، كالأسلحة والتروس والدروع ، وأدوات للقطع والحفر والتحطيم ، وأُهَب للتموين والزحف والحصار والمواصلات .

وقد ظهر هذا الفرق على أشد حالاته عندما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الله قد وعده إحدى الطائفتين ، إما التجارة وإما جيش قريش ، فاختاروا أن يتحقق وعد الله فى التجارة ، محتجين بأنهم لم يتخذوا للحرب عدتها ، ولم يقل لهم النبى حين ندبهم أنهم قد يُدعون لملاقاة جيش مقاتل .

فلما أفلتت التجارة تعين عليهم أن ينازلوا الجيش المقاتل ، وكيف يتأتى ذلك وهم مع قلة عددهم لم يتخذوا للحرب عدتها ؟ وقد أدى ذلك الى موقف من التردد أدركه النبى صلى الله عليه وسلم وعمل على ملافاته ، وهذا الاقدام لا يكون مع وجود هذا العامل الخطر من التردد فى جيش محارب إلا إذا كانت ثقة قائده بالنصر مطلقة ، وكيف لا تكون كذلك وهو رسول وقد وعده الله إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداها فلا بد أن يكون مصداق وعد الله الأخرى .

فإذا لم يكن قائد هذه الفصيلة من المحاربين نبيا ، واثقا كل الثقة من صدق ما ينزل عليه من الوحى ، لما أقدم على الزج بمن تحت إمرته فى الحرب ، وهم على ما هم عليه من الاختـلاف والتهيب ، لأنه كان يتحقق أن هزيمتهم لا بد منها لأسباب فنية وجيهة :

(أولها) تفوق العدو فى العدد بحيث كان على نسبة ٣ على ١ ، وهذا يعتبر فى عرف الحربيين تفوقا ساحقا ، لا يكون فيه للقلة أمل فى الظفر إلا إذا كان لديها من العتاد ماليس عند الأخرى ، أو من المناعة الطبيعية ما ليس مثله لخصيمتها .

(ثانيا) تفوق العدو فى الأسلحة ، وهى العوامل الفاصلة فى الحروب كما لا يخفى .

(ثالثها) تحقق الجيش المحارب من تفوق عدوه عليه فى عوامل الغلَب .

فالقائد الذى يدفع بجيشه فى أتون الحرب مع تحققه من تأثير كل هذه العوامل ، ويقول كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أبشروا والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم » وقوله : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى به » ، قلنا إن القائد الذى يدفع بجيشه للحرب ، مع توافر أسباب الضعف فى جنوده ، وهو واثق بالفوز هذه الثقة ، لا يعقل أن يكون صادرا فيها عن مغامرة ، إلا إذا كان يريد المجازفة بكل ما يملك من نفس ومال وأهل ، وما الذى كان يدفع محمدا لذلك ولم يكن مضطرا إليه بحال من الأحوال ؟ فلا قومه كانوا يقولون له قد غررت بنا وادعيت أنك فائز ولم تفز ، لأنهم هم الذين كانوا يطلبون إليه الرجعى بدون حرب ؛ ولا مشروعه كان يتعرض للفشل لو رجع بدون قتال ، لأن العدو لم يكن ينوى أن يهاجمه فى عقر داره ، ولو فعل لاستهدف للهزيمة لأن القوة التى كانت معه لا تسمح له بالشروع فى حرب استئصال ؛ ولاهو كان يخشى أن يتفرق أصحابه عنه إذا عاد ولم يلق فلجا ، فقد خرج مرارا للاستيلاء على تجارة قريش وعاد دون أن يعمل شيئا لإفلاتها منه ، فلم يؤثر ذلك فى إيمان أصحابه به . فلم يبق إلا أنه دفع قومه فى هذه المعركة التى لم يستعدوا لها ، ثقة منه بما وعده الله من الفوز على إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداهما فلا بد أن يصدق وعد ربه فى الأخرى ، فدفع أصحابه الى منازلتها واثقا بالنصر ثقة لا حد لها ، لأن الله لا يخلف وعده كما قال فى كتابه الكريم : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » . فحقق الله ظنه فيه ، وآتاه نصرا أيد به حجته ، وقوى عزيمته ، وجعله فاتحة لانتصارات أخرى سيكون من آثارها ما ابتنى عليها من الحوادث العالمية الخطيرة .

رد شبهة فى هذا الموطن .

قد يقول معترض : ليس فى انتصار محمد فى وقعة بدر ما يصح أن يجعل فى عداد المعجزات النبوية . فاذا كانت جميع عوامل الغلب تنقص المسلمين فى تلك الموقعة ، فهنالك عامل خطير جدا كان متوافرا لديهم ، وهو الثقة المطلقة فى نبوة قائدهم ، وأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . فاذا اتفق لقائد أن يكون تحت إمرته رجال يثقون بكلامه ، ويصدقونه كما يصدق أصحاب محمد محمدا ، لاقى بهم الأهوال ولم يبل ، لأن عقيدتهم تضاعف من قوتهم ، وتكسبهم روحا تدفعهم فى الكريهة بغير مبالاة بما يصيب أجسادهم ، وتجعلهم لا يشعرون بما يشعر به الرجال المجردون من مثل هذا الروح من التعب والنصب ، وخاصة إذا كانوا يعتقدون أنهم إذا ماتوا انتهوا الى جنة عرضها السموات والأرض ، أعد لهم فيها من ضروب المتع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فهل تعجب بعد ذلك أن يكسب محمد معركة بدر ولديه من أمثال هؤلاء الرجال ثلاثمائة أزاء ألف ؟ إن العجب كان أن لا تفوز هذه الشرذمة بالغلب على عدو لا يملك من وسائل الكفاح إلا ما لديه من العتد العادية .

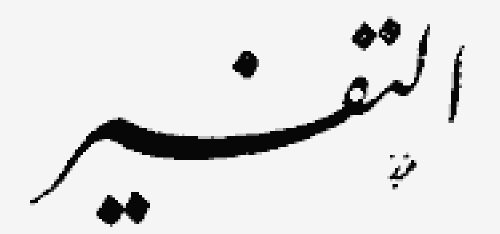
نقول : إن هذه الشبهة فى ظاهرها قوية ، لاستنادها الى أصول بسيكولوجية ، ولكنها فى الواقع شعرية خيالية ، وقائمة على افتراضات تحكمية ، فإن الأصول النفسانية التى تقوم عليها لو صدقت على عشرة رجال أو عشرين بل خمسين ، فلا تصدق على المئين ، لا سيما وقد كان معظمهم قريبى عهد بالاسلام ، ولم تظهر لهم بعد من مظاهر تأييد الله لرسوله فى المآزم ، ما يتخذونه مثالا لهم فيما هم بسبيله من منازلة جيش يفوقهم عددا وعدة ، وفيه من الأبطال المعدودين عدد ليس بالقليل . فعناصر الاستماتة فى القتال التى يفترض المشتبه وجودها فى جيش الصحابة إن وجدت فيه ، فلا توجد بالقدر الذى يوجب لهم التغلب على عدو لا ينقصه من عوامل التغلب شىء ، حتى عامل النعرة القومية ، فإن الجاهليين كان قد أمضهم تسفيه أحلامهم ، وتحقير آبائهم .

ولو أضفت الى هذا عامل تنازع البقاء ، وهو ما لا بد من أن يكون قد تيقظ فيهم بسبب قيام المسلمين على طريق تجارتهم ، يتصدون لها كلما مرت بهم ، فيضطروا إما الى زيادة عدد حامياتها ، وإما الى الاقلاع عن إرسالها ، وكلا الأمرين غير محتمل . فكان من أمس الأمور بمعاشهم أن يستبسلوا فى إبادة هذه الطائفة التى قامت عقبة فى سبيل مبادلاتهم ، وهم ما آثروا الحياة الحضرية ، فى مدينة مبنية ، ليموتوا فى حجرات دورها جياعا عارين ، ولكنهم تخيروها ليعيشوا عيشة المدنيين ، مع كل ما تقتضيه حياة الاستقرار من المبادلات والمعاوضات ، وهذه لا تكون إلا بتأمين الطرق ومسالمة الجماعات التى تقوم على جانبيها ، أو إخضاعها لسلطانهم .

إذا اعتبرت كل هذا وجدت أن جيش الجاهليين لم تكن تنقصه عوامل الاستبسال والاستماتة فى القتال ، وإذا أضفت الى ذلك تفوقه فى العَدد والعُدد ، أدركت أن التغلب عليه بشرذمة لم تتخذ كل عدتها لحرب زبون ، يعتبر آية من الآيات فى تلك البيئة التى كان أهم مايحرك الهمم فيها الى حدود التضحية، عامل الحاجات الأولية لحفظ الذات ، لا عامل الدفاع عن العقائد ، والذياد عن المبادئ . ناهيك أن تلك البيئة التى كانت لا تنقطع سلسلة الغارات فيها بسبب تنازع البقاء ، لم تنشأ فيها حرب واحدة فى مدى تاريخها الطويل ، لنصرة دين على دين ، أو مذهب على مذهب . فكانت وقعة بدر أول ما حدث من نوعها فى هذا الركن المنعزل من الأرض .

فان أصر المعترض على شبهته ، قلنا له : إن نضج العاطفة الدينية طفرة الى حد تضحية النفس فى سبيلها ، لدى قوم كعرب الجاهلية لم تؤثر عنهم حماسة دينية طوال عهدهم بالوجود ، يعتبر أكبر من المعجزة الحربية التى نحن بصددها ، وأدل على المدد الإلهى منها . فعلى أى أساس صحيح يستطيع البسيكولوجى أن يعلل انتصار المسلمين على عدوهم فى بدر بأسباب طبيعية محضة لا أثر للاعجاز فيها ؟

محمد فريد وجدى



سورة الشمس وضحاها

بسم الله الرحمن الرحيم

سبق الكلام على قوله تعالى « والشمس وضحاها » . أما قوله « والقمر إذا تلاها » فنقول فيه : اختلف المفسرون فى تلو القمر للشمس على أقوال ، وأظهرها ما قيل من أن المراد ظهوره عقيب غروبها ، وذلك عندما يكون بدرا ليلة أربعة عشر . وأقسم به فى هذا الحال لظهور سلطانه ، واستكمال جماله الرائع ، وحسنه البارع ولك أن تقول : إنه تلاها فى الضوء لعظمة أمره وقوة نوره إذ ذاك ، فكأنه شمس ليلية تجلت بعد غروب الشمس النهارية . ويقول قائلون : إن المراد أنه تابع لها ومستفيد نوره منها ، فإن نور القمر مستفاد من نور الشمس كما هو معروف .

هذا ، والقمر أقرب الأجرام السماوية إلينا ، وأكبر ما تراه العين بعد الشمس من الكواكب ، وكما أن الأرض تدور حول الشمس فى عام كامل ، فكذلك القمر يدور حول الأرض فى كل شهر مرة . أما ظهوره هلالا ناقصا فبدرا كاملا ، فلكون نوره مستفادا من نور الشمس وليس ذاتيا له ، فلا غرو أن يختلف باختلاف نسبته إليها قربا وبعدا ولذلك ينكسف بالكلية عند ما تحول الأرض بينه وبينها وهو وقت الخسوف المعروف . والقمر من أكبر النعم وأبهر الآيات وأبهج المناظر التى تورث البهجة والسرور .

ثم قال تعالى : « والنهار إذا جلاّها » :

يقسم تعالى بالنهار إذا جلى الشمس وأظهر نورها وسلطانها ، والمراد إذا جلى الله الشمس فى النهار ، فالإسناد مجازىّ كصام نهاره . وقيل إن الضمير يعود على الأرض ، أى جلّى النهار الأرض بعد ما كانت مستترة بظلمة الليل ، فالضمير عائد على معلوم غير مجهول . ومثل ذلك قول من قال إن الضمير يعود على الدنيا . وقيل إن الضمير يعود على الظلمة المعلومة من المقام . والمراد بتجليتها على هذا القول إزالتها . والقول الأول أولى لذكر المرجع واتساق الضمائر . وجوز بعضهم أن يكون الضمير المرفوع المستتر فى جلاها عائدا عليه تعالى ، كأنه

قبل : والنهار إذا جلى الله تعالى الشمس فيه . فيكون قد أقسم سبحانه بالنهار فى أكمل حالاته . ولكنه بعيد غير متبادر .

ثم قال تعالى : « والليل إذا يغشاها » :

أى الشمس ، أى يغطى ضوءها . والكلام فى الضمير المنصوب على نحو ما سمعت فى سابقه ؛ والأولى عوده الى الشمس لا للأرض ولا للدنيا على ماعلمت . وجيء بصيغة المضارع فى « يغشاها » إحضارا للصورة العجيبة التى تأخذ بمجامع القلوب ، وتطير بالنفوس الى علام الغيوب . وحقا إن غشيان الليل للنهار لمن أبهر الآيات ، وأعظم النعم المتواترات ؛ وكذلك مجيء النهار بعده . فسبحان الحكيم العليم « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . وما أشبه حال الناس وهم نائمون بالليل بحالة من فى القبور ! وما أشبه حالهم عند الانتباه وقت الصباح بحالهم إذا بعثوا من قبورهم ! « فهل من مدكر » .

ولا بأس أن نقول لك : إن الأولى فى إذا أن تكون منصوبة على الظرفية ، مجردة عن الشرطية ، والعامل فيها مضاف مقدر بعد واو القسم ، وكأنه قيل : أقسم بعظمة كذا وقت كذا ، لأن هذا الوقت هو وقت ظهور سلطانه ، وتجلى برهانه .

ثم قال تعالى : « والسماء وما بناها » :

أى من بناها . وإيثار ما على من لإرادة وصف العظمة فى من بناها ، والجلال فى من سواها . وإذا أريد ذلك كان المقام لما ، لالمن ، كما هو مقرر فى محله ، فكأنه قيل : والقادر العظيم الذى بناها . على أن ما قد يعبر بها عن ذوى العلم كثيرا . والمراد ببنائها إيجادها .

هذا ثم نقول : إن عظمة السماء لتأخذ بلب من ينظر إليها متأملا فيها ، فلا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السموات العلى إلا ويغض إجلالا وإعظاما . انقضت العصور وتولت الدهور والبشر معجبون مسحورون بجمال القبة الزرقاء وجلالها ، يتطاولون الى إدراكها بالخيال ، ويستنزلونها الى الأرض بالقرائح ، فلم يستطلعوا من أمرها ، ولم يخبروا من خبرها شيئا إلا مشوبا بالأوهام ، وشبها بالأحلام . والفضل الأكبر فى تقديرها قدرها ، وتعريف ما يقرب من الحقيقة فى شأنها ، إنما هو فضل علم الفلك الذى عرفنا أن النجوم تزيد على مئات الألوف ، وأن نور بعضها لا يصل إلينا إلا بعد ألف سنة ، وأكثر من سرعة النور الذى يسير فى الدقيقة ٩٢ مليونا من الأميال . فهو الذى عسى أن يكون أنبأنا عن عظمة تلك القبة الزرقاء التى نوه بشأنها عز وجل فى مواضع كثيرة من القرآن .

ولنتل هنا قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » . « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون » ، « إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » .

ولنقف هنا اليوم سائلين الله التأييد والتسديد ، منشدين قول القائل :

يا خالق الخلق يا من لا شريك له   طوبى لمن عاش بين الناس يهواك
والله ما أنست روحى ولا فرحت   فى الدهر ما بقيت إلا بذكراك
إنى لأعجب ممن قد رأى طرفا   من فرط لطفك ربى كيف ينساك

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء



فضيلة الجود

قال حكيم : من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك العباد .

يروى أنه قيل للاسكندر : لم لا تكنز الأموال كما كانت تفعل الملوك ؟ فقال : كنوزى هم أصحابى أكنز الأموال فيهم لا فى البيوت .

نقول يطابق هذا القول ما ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : أحسن الكنوز محبة القلوب .

والى هذا يشير الشاعر بقوله :

وما مال من أعطى الكرامَ بناقص   ولكنه عند الكرام ودائع

وأحسن منه قول الامام الشافعى رضى الله عنه :

وأحسن الى الأحرار تملك رقابهم   وخير تجارات الكرام اكتسابها

وقال البستى :

من جاد بالمال مال الناس قاطبة   اليه والمال للانسان فتان
من كان للخير مناعا فليس له   على الحقيقة إخوان وخلان

السنة

الظلم والشح

عن جابر رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اتقوا الظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة ؛ واتقوا الشح ، فان الشح أهلك من كان قبلكم ! حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » رواه مسلم .

يتعلق بشرح هـذا الحديث أمران (١) بيان معنى الظـلم وآثاره الضارة فى الشريعة الإسلامية (٢) بيان معنى الشح وآثاره الضارة بين الناس .

(١) كل الناس يعرفون معنى الظلم ، ويدركون معنى العدوان على الأنفس والأعراض والأموال والحقوق العامة والخاصة ، فاذا اعتدى أحد على غيره فى نفسه أو ماله أو عرضه ، أو سلبه حقا من حقوقه فقد ظلمه ، ومن يفعل ذلك فقد خسر خسرانا مبينا ، وكان عرضة للهلاك فى الدنيا والآخرة .

لقد نهى الله عن الظلم فى غير موضع من القرآن الـكريم ، ولعن الظالمين وهددهم بأشد أنواع الجزاء ؛ ومن ذلك قوله تعالى : (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم . وافئدتهم هواء) .

فلينتظر الظالمون الذين يفلتون من الجزاء الدنيوى على ما كسبت أيديهم عقاب الله تعالى يوم القيامة ، وإن عقابه لشديد ، وإن أخذه لأليم . ومعنى تشخص فيه الأبصار لا تقرفيه أبصارهم من شـدة الهول والفزع . ومعنى مهطعين ، مسرعين الى من يدعوهم . كما هو شأن الأسير الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا . ومعنى مقنعى رءوسهم . رافعى رءوسهم من شدة الهول . ومعنى لا يرتد إليهم طرفهم ، لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا الى أنفسهم . ومعنى وأفئدتهم هواء ، قلوبهم لا تعى شيئا من شدة الفزع والهول .

والغرض من هذه الآية الـكريمة تمثيل الحالة التى يكون عليها الظالمون يوم القيامة ، يوم لاينفع مال ولابنون ؛ فبين الله سبحانه أن جريمة الظلم يترتب عليها يوم القيامة من العذاب والفزع ما سيصعق له الظالمون الذين ينتهكون حرمات الضعاف بقوتهم ، ويستعذبون التنكيل بعباد الله بدون أن يحسبوا لخالقهم حسابا ؛ فبين سبحانه أن هؤلاء الظالمين سيستولى عليهم فزع العذاب وهول الموقف ، فيذهب بعقولهم ، ويتملك مظهرُ ذلك الفزع حواسَّهم ، فتشخص أبصارهم

بحيث لا يستطيعون أن يحركوا رءوسهم كما يشاءون ، كما هو شأن الولهان الفزع الذى تفاجئه الكوارث ، وتزعجه النائبات .

ومما لا ريب فيه أن هذه الآية الكريمة قد بينت ما سيلاقيه الظالمون من هول وفزع أحسن بيان . وإن فيها لعظة وعبرة للطاغين الذين تغرهم شهوة الجاه والسلطان فيسلبون الناس حقوقهم ويؤذونهم فى أموالهم ، وأعراضهم ، وأنفسهم ، وحقوقهم ، وهم ناعمون متلذذون بسلطانهم الزائل . وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

أما الأحاديث الواردة فى التحذير عن الظلم ، وتخويف الظالمين ، فهى كثيرة لا تقف عند حد . ومنها هذا الحديث الذى نشرحه . فقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتقى شر الظلم ، ونتحاشاه ، لأن شره مستطير ، ولا بد أن ينتقم الله من الظالمين فى الدنيا والآخرة إن لم يتوبوا من ظلمهم ، ويرجعوا عن غيهم ، ويردوا الحقوق لأربابها .

ومن ذلك ما رواه مسلم وغيره من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار » . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يملى للظالم ، فاذا أخذه لم يفلته » . رواه البخارى ومسلم وغيرهما ، وقد جاء فى آخر هذا الحديث ذكر قوله تعالى : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى : إمام ظلوم غشوم ، وكل غال مارق » رواه الطبرانى . وقوله صلى الله عليه وسلم : « دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرا ففجوره على نفسه » : رواه أحمد باسناد حسن . وجاء فى بعض روايات الصحيح : « اتقوا دعوة المظلوم ولو كافرا » الى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الصحيحة الدالة على أن الدين الاسلامى قد حث الناس على ترك الظلم ، ونهاهم نهيا شديدا عن إيذاء بعضهم بعضا فى أموالهم ، وأعراضهم ، وأنفسهم ، وأمرهم باقامة العدل والاحسان فيما بينهم ، فلا يعتدى قوى على ضعيف ، ولا يجور ذو سلطان على الناس بما أتاه الله من جاه ومنصب ، ومن لم يتبع أمر الله تعالى فانه لابد أن يكون نصيبه الهلاك فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

إن هذا القدر الذى ذكرناه من شناعة الظلم فى نظر الشريعة الاسلامية ظاهر قد لا يخفى على أحد من الناس ، ولكن الذى يجب على المسلمين أن يتنبهوا له ، ويحاربوه بكل ما لديهم من قوة ، هو ما يبعثهم الى الوقوع فى مثل هذه المحظورات الموبقة التى قضت على كثير من قوتهم المادية ، والأدبية ، وأورثتهم ذلا بعد عز ، ومهانة بعد شرف وكرامة . فمن أهم

الوسائل الباعثة على ارتكاب جريمة الظلم تحكم سلطان الشهوات على الأنفس ، والرغبة فى الحصول على أكبر قسط ممكن من تلك الشهوات الفاسدة التى تنقضى سراعا ، ثم تترك وراءها حسرات لا تنقضى ولا تفنى ، وشقاء لا ينقطع ، وعذابا أليما . فترى ذوى الجاه والسلطان تزين لهم بطانة السوء حب سماع النمائم والوشايات ، فيبطشون بالمؤمنين الغافلين الأبرياء طاهرى القلوب سليمى الصدور ، ويذيقونهم من أنواع الظلم والحيف ما قد يقضى على أرواحهم وأموالهم وكرامتهم ، ويسلبهم حقوقهم الطبيعية وهم غافلون .

وترى كثيرا من الناس يكادون يكونون فوضى فى باب الأموال ، فكل من أتيح له أن يستولى على مال الغير بأية وسيلة من الوسائل لا يتأخر عن ذلك بدون مبالاة بأوامر ربه ونواهيه . ألم ينه الله تعالى نهيا شديدا عن الغش والخيانة وتطفيف الكيل والميزان ؟ ألم يقل سبحانه : (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) ؟ ألم يقل سبحانه : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) ؟ ألم يقل : (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) ؟ ألم يقل صلى الله عليه وسلم : (كل لحم نبت من حرام ، فالنار أولى به) ؟ ألم يقل : (من غشنا فليس منا) ؟ الى غير ذلك من النهى الشديد الجازم عن الظلم فى باب الأموال . فما بال المسلمين يظلم بعضهم بعضا ، ويغش بعضهم بعضا . ألا إن ذلك لهو الخسران المبين .

وترى كثيرا من الناس يكادون يكونون فوضى فى شهوة الفرج ، فلا يبالون بانتهاك الحرمات ولا يحسبون للتعدى على الأعراض حسابا ، فلا زاجر يزجرهم ، ولا دين يحول بينهم وبين ارتكاب جريمة الزنا ، وما فى معناه من الرذائل الخلقية التى تمحو الفضائل كأنهم بهم لا يعرفون للانسانية معنى . وأشنع من هذا وذاك ما يرتكبه بعض قساة القلوب من قتل الأنفس البريئة التى حرم الله قتلها وأعد للقاتل عذابا أليما . قال تعالى : (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) .

يفعل المسلمون ذلك ، ويتركون دينهم وراءهم ظهريا ، كأنهم لم يسمعوا قول النبى صلى الله عليه وسلم : (كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله) . ألا فليعلم المسلمون أن ارتكاب هذه الجرائم ، واقتراف هذه المظالم هى السبب فى انحطاطهم وتأخرهم ، ولا ينفعهم إلا أن يرجعوا الى الله ربهم ، ويعملوا صالحا ، لعلهم يفلحون .

٢ — أما معنى الشح ، فهو الإمساك عن الإنفاق حيث يجب البذل ، سواء كان واجبا دينيا كزكاة المال ، والنفقة على الزوج والأولاد ونحوهم ممن تجب على المكلف نفقتهم ، ومثل ذلك الإنفاق على إحياء نفس يتوقف على ذلك الانفاق إحياؤها ، أو كان واجبا تقتضيه المروءة بأن ينفق ما يناسب حاله ، فلا يليق أن يكون ذا مال كثير ويعيش عيشة البؤساء ،

أو يضيق على أولاده وأهله ، فيحرمهم من أنعم الله تعالى ، أو يسقط كرامته فى البيئة التى يعيش فيها ، فيصبح بذلك عرضة لتحقير الناس إياه ، وغير ذلك من الأمور التى تخل بالمروءة . فإذا حفظ الانسان نفسه من هذا لا يكون بخيلا فى نظر الدين . أما كونه كريما فذلك تابع لحالته المالية ، وتفاوت أنظار الناس فى تقدير الكرم ، والذى يحفظ الانسان من شر الشح هو العمل بقوله تعالى : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) .

أما شر مضار الشح وأكبر آفاته ، فهو فقد التعاون بين الناس وذهاب التراحم والتواد من بينهم ، وحلول العداوة والبغضاء محل ذلك ، لأن الشحيح يبغض التعاون بطبيعته ، ولا تسمح نفسه ببذل شىء من ماله ولو يسيرا لمساعدة الضعفاء ، فتمتلئ قلوبهم ضغنا عليه ، وتثور أنفسهم حسدا عليه ، فإذا فشا الشح فى أمة كانت نتيجته فوضى الاشتراكية التى يترتب عليها سفك الدماء ، واستحلال المحارم . لذلك يشير قول النبى صلى الله عليه وسلم (وإياكم والشح ، فانما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا) من حديث رواه أبو داود والحاكم — والشح والبخل بمعنى واحد ، فمعنى قوله عليه الصلاة والسلام أمرهم بالبخل فبخلوا . أمرهم عن الكف عن معونة الناس . وقيل الشح الحرص على ما عند غيره . والبخل الحرص على ما عنده . فذلك صريح فى أن الشح خطر اجتماعى كبير ، يترتب عليه هلاك الأمم وفناؤها ، لأن الانسان بحسب تكوينه الطبيعى ، وفطرته التى فطره الله عليها محتاج الى التعاون مع غيره فى هذه الحياة فلا يمكنه أن يسلك سبيلها وحده وأن يقطع مراحلها منفردا . بل لابد له من ذلك فى الاستناد الى غيره والتعاون معه فى كل أطواره من وقت وجوده الى أن يوارى فى التراب . وكلما اشتد ضعف الانسان اشتدت حاجته الى غيره ، فتراه فى حال طفولته محتاجا الى غيره فى كل شىء . فإذا ما نشأ وترعرع استقل فى بعض أموره ، ولكنه لم تنقطع حاجته فى البعض الآخر .

ومن ذلك يتضح أن التعاون من ضروريات المجتمع الإنسانى ، وبقاء العمران ، والشح ينافى التعاون والتراحم بين الناس . وهيهات أن تجد الرحمة الى نفس الشحيح سبيلا ، لأن الشح يدعوه الى أن يقاطع أرحامه وأقرب الناس إليه ، فضلا عن البعيدين عنه ، ويدعوه الى القسوة والغلظة ، فلا يغيث مكروبا ، ولا يعين ضعيفا ، ولو توقفت حياته على معونته . يدعوه الى أن يكسب المال من أى طريق بدون تفرقة بين حلال وحرام ، يدعوه الى أن يحقد على كل من يحاول أخذ شىء من ماله ولو كان من أبنائه وأهله ، وقد يفضى به ذلك الحقد الى ارتكاب الجنايات وسفك الدماء . فلا ريب فى أن الشح من أكبر الآفات التى تضر بالمجتمع الانسانى . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : اللهم إنا نعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر . وفتنة المحيا والممات . رواه مسلم م؟

عبد الرحمن الجزيرى

الكلام والمتكلمون

— ٧ —

الإمام الغزالي

أسلوبه :

يلاحظ الذين يدرسون الغزالي أن أسلوبه يختلف كل الاختلاف مع الفلاسفة الآخرين أمثال ابن سينا ومن هم على شاكلته . فبينما يرى القارئ أن أسلوب ابن سينا مثلا موجز محدود ، يلاحظ على العكس أن أسلوب أبي حامد خصب مسهب تنساب فيه العبارات والمترادفات انسياب الماء في الغدران ، وتتتابع جمله في شيء عظيم من الرشاقة . ويرى الأستاذ كارّادي فو أن الغزالي اجتمعت لديه صفات الخطيب والعالم النفساني والواعظ الديني ، فهو يفيض بالأولى ، ويحلل بالثانية ، ويأسر النفوس بالثالثة ، إذ هو يفتش عن أحب الجمل الى القلوب ، ويجمع أشد النصوص تأثيرا في العقول ، ويستخدم المجازات والكنايات حتى لا تشتغل الأرواح والعقول بغير ما يقول . وفوق ذلك فهو يعبر عن المعنى الواحد بتعبيرات مختلفة ، ويصور الموقف الواحد بصور متباينة . وقد جزم هذا العالم المستشرق في كتابه « الغزالي » بأنه لم يعرف فيمن قرأ من العلماء أسلوبا أرق وأخصب من أسلوب الغزالي ، وهو يأسف أشد الأسف ، لأن لغته الفرنسية لا تتسع لهذا الأسلوب ، ويعتذر إذا لم يوفق الى الإجادة والاتقان في نقل ما نقله عن هذا العالم القدير . وقد أثنى الأستاذ كارادي فو على هذا الأسلوب في كتابه الآخر « مفكرو الاسلام » ثناء عاطرا نقتطف منه ما يلي :

« إن أسلوب الغزالي مخصب سهل لدن واضح ، وأنه إذ يستعين بالصور الخيالية ولا يغض الطرف عن الجانب العملي يستهوي القارئ ولا يتعبه . إن عقله متزن ، فهو إذا اقتبس من السنة ، فعل ذلك بدون إثقال أو إفراط . إنه يقسم ويفرع بعناية ووضوح ، وبدون تصنع أو مباهاة . ولما كان نفسانيا ، فلم يَهْوِ في الدقة المغالية . وبهذا يمكن تشبيهه ببعض آباء الكنيسة الإغريقية ولا سيما القديس « جان كريزوستوم » أي (ذو الفم الذهبي) وهو صاحب الأسلوب الجذاب السهل الساطع ، ولكن ينبغي القول بأن الغزالي أدخل منه في باب النظر » (١)

---

(١) انظر صفحة ١٦٠ من الجزء الرابع من كتاب « مفكرو الاسلام » .

رأيه فى العـلوم :

بقيت نقطة واحدة ينبغى أن نعلن رأى الغزالى فيها قبل مغادرة هذا المقام ، وهى رأيه فى العلوم المختلفة التى كانت ذائعة فى عصره . ويتلخص هذا الرأى فيما يلى :

تنقسم العلوم عنده الى قسمين : شرعية وغير شرعية . فأما الشرعية فـكلها خير ، وكذلك أدواتها الضرورية لها كالنحو والبلاغة والتاريخ وكل ما يحتاج إليه فى شرح الـكتاب الـكريم أو السنة الغراء . وأما العلوم الغير الشرعية ، فبعضها خير مباح ، بل مفروض أحيانا وذلك كالطب والحساب مثلا . والبعض الآخر شر محظور كالسحر والـكهانة ، أما الشعر نخيره مباح ، وشره محظور .

منزلته بين المتـكلمين ورأيه فى علم الـكلام :

نشأ أبو حامد فى أشد العصور الاسـلامية نضالا بين الفرق ، ونزاعا بين النحل كما أشرنا الى ذلك آنفا ، فلما شب وجد العقول مضطربة والألباب حائرة ، وسمع حوله آراء متضاربة فى علم الـكلام . فالبعض يحرمه وينزله من دركات الآثام الى الدركة التى تلى الشرك بالله . وقد عُـزِى هذا الرأى من السابقين على الغزالى الى الأئمة : مالك والشافعى واحمد بن حنبل وسفيان الثورى وغيرهم من أئمة السلف . فروى عن الإمام الشافعى أنه قال : « إن أكبر الـكبائر الشرك بالله ثم علم الـكلام . ولو علم الناس مافى هذا العلم من هوى ضار ، لفروا منه فرارهم من الأسد » .

وأثر عن الامام أحمد أنه اعتبر جميع المتـكلمين زنادقة . أما مالك فقد روى عنه أنه قال : « ألا ترون أن المتـكلم كلما لاقى من هـو أفصح منه وأقدر على التدليل اعتنق رأيه . وبهذا يكون قادرا على تبديل دينه فى كل يوم »

أما البعض الآخر من المسلمين ، فـكان لا يبيح علم الـكلام فحسب ، بل كان يجعله واجبا لضرورة الاحتياج الشديد إليه فى الدين . وقد أخذ هذا الفريق يدفع عن علم الـكلام مستدلا بالآيات القرآنية كقول القرآن مثلا : « قل هاتوا برهانـكم إن كنتم صادقين » وقوله « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » وغـير ذلك من الآيات الحاثة على استعمال الحجة والبرهان .

وقد استدلوا كذلك على صحة ما ذهبوا إليه بمجادلة وقعت بين الإمام على وجمع غفير من الخوارج ، وانتهت باهتداء ألفين من بينهم الى تعاليم السنة السمحة .

نشأ أبو حامد فى وسط هذه المعارك الطاحنة ، وبين هذه الآراء المتضاربة فلم يكن نصيرا لأحدها على الآخر دون تأمل ولا تفكير ، بل عكف على دراسة هذه المشكلة ، وأنعم فيها النظر

طويلا ، فخرج منها بأن بعض المحرمات محظور لذاته كالخمر والخنزير ، والبعض الآخر الأصل فيه الاباحة ولكنه ينتقل إلى الحظر عند ما يظهر شره وضرره . وعلم الكلام من هذا النوع الأخير مباح ، بل ضرورى وواجب فى بعض الظروف . فاذا ركب الانسان فيه هواه ، وغلبه العناد انتقل الى الحظر وأصبح الاستمرار فيه إثما ، بل كبيرة من الكبائر . وتعرف هذه الحالة بالإحساس بتزعزع الايمان واضطراب أسسه . فاذا وصل المتكلم الى هذه الحالة وجب عليه الاقلاع عن علم الكلام ، لأنه لا يضمن ـ إذا استمر ـ أن يعود اليه إيمانه الأول أو يفوز بايمان آخر متين مؤسس على الحجة والبرهان . وإذا نظرنا الى الواقع المشاهد ، رأينا أن إثم الكلام أكبر من نفعه ، إذ أنه أضل أكثر ممن هدى ، لأنه فى الحالة الأولى هادم ، وفى الحالة الثانية ليس إلا مساعدا على بناء كان يمكن أن يستغنى عنه فيه . وإذاً ، فهو ليس أساسا من أسس الايمان ، وإنما هو يضىء بعض نواحيه لمن احتاج الى الاضاءة فحسب .

وبناء على كل ذلك ، فالخاصة يجب أن يتعلموا الكلام ليدفعوا به مهاجمات الملاحدة والزنادقة . أما العامة ، فاذا كانوا فى بلد ساد فيه الايمان ، فينبغى ألا يعلموا عن الكلام أكثر من أنه خطر على الدين ؛ وأما إذا كانوا فى بلد انتشرت فيه الشبه الى حد يخشى منه على الأطفال ، فيجب أن يدرس فيه الكلام حتى للجماهير ليحصنوا به أطفالهم ضد تلك الشبه ، ولكنهم لا ينبغى لهم أن يتعدوا النوع الذى ذكرناه من علم الكلام فى كتابنا « الرسالة القدسية » . أما الخاصة فلا بأس بأن يدرسوا منه ما فى كتابنا : « الاقتصاد فى الاعتقاد » . فمن لم يكفه ما فى هذا الكتاب ، فلينتظر حتى يلهمه الله الحقيقة أو فسيكون مصيره أن يهوى فى الشك أو فى الجحود .

مذهبه فى المسائل الاسلامية العامة :

يرى أبو حامد أنه يجب على كل مسلم أن يعرف أن من الواجب فى حق الله القدم والبقاء ومخالفة الحوادث ، والقيام بالنفس ، والوحدانية . وتسمى بالصفات السلبية ، لأنها تسلب عن الله ما لا يليق به كالحدوث والفناء وبقية أضدادها . وكذلك يجب فى حقه كونه حيا ، عالما ، مريدا ، قادرا ، سميعا ، بصيرا ، متكلما .

وعند كلامه على هذه الصفات اجتهد فى أن يتجنب كل المناقشات الضارة التى حدثت بين الصفاتية والمعتزلة حول صفات المعانى ، ولعله اكتفى فى هذا الموضوع بما أورده فيه ردا على الفلاسفة فى كتاب « التهافت » لأنه يعمد غالبا فى كتب التوحيد الى البراهين النقلية أو العقلية البسيطة الخالية من التعمق ، وهو يسلك عين هذه الطريقة حين يعرض لرؤية الله فى الآخرة ولمسألة كسب العبد المراد لله والمقدور له بدرجة تجعل كل حركاته وسكناته مشمولة بهذه

القدرة وتلك الارادة الإلهيتين شمولا تاما . وبيان هذا عنده أن الله خلق التصميم والشيء المصمم عليه وأوجد الأول فى الانسان وجعله مقدورا له ومكتسبا . فالمنسوب الى الله الاختراع والى العبد الاكتساب . وكذلك أوجد الاختيار والشيء المختار ، والمتحرك والشيء المتحرك اليه . فالاختيار والتحرك ، والمختار والمتحرك اليه ، مخلوقة لله على سبيل الاختراع ، ومقدورة للعبد على سبيل الاكتساب .

أما جميع السمعيات من : صراط وميزان وجنة وطعام وشراب ومتعة ، فهى عنده حقيقية ، ولكنه يضيف إليها بعض التأويلات كأن يقول مثلا : إن الصراط حقيقى ، ولكن وصفه بأنه أرق من الشعرة مجاز ، لأنه يشبه الخط الهندسانى المستقيم الممتد بين النور والظلمة ، أو أن يقول : إن نعيم الجنة ليس مقصورا على المتع المادية ، بل إن فيها متعا روحية عظيمة تفوق المتع المادية كثيرا ، الى آخر ما جاء فى تعليقاته على السمعيات التى يخيل الى المطلع عليها للوهلة الأولى أن الاسلام دين مادى لا ينشغل إلا باللذات الجسمية كما فهم بعض الأوربيين فى هذا العصر ، وكما فهم — على ما يظهر — بعض معاصرى الغزالى أو السابقين عليه من الفلاسفة والتمثيليين (١) .

نضاله مع الفلاسفة :

ليس الغزالى أول المتكلمين المسلمين الذين ناضلوا الفلاسفة ، إذ يرجع هذا النضال الى مبدأ ظهور الفكر الاغريقية فى البيئات الاسلامية . وقد أشرنا الى ذلك النضال فى العام الماضى فى عرض حديثنا عن المدرسة الأشعرية ، فليرجع إليه من شاء . وقد كان هذا النضال يتمثل حينا فى محاورات عامة فى الميادين والأسواق ، وحينا فى مناظرات أمام الخلفاء والأمراء وطورا فى رسائل يبعث بها بعضهم الى بعض ، أو كتب ينسخونها ويعرضونها فى المكتبات العامة . وفى الحق أن هذا النضال كان له ما يبرره من الناحيتين ، لأن الفلاسفة كانوا يرون أن المتكلمين الشديدى المحافظة يضعون بجمودهم حاجزا حصينا بين العقل والدين من جهة وبين العقل والرقى الطبيعى من جهة أخرى ، ولأن المتكلمين كانوا يعتقدون أن فى هذه الحرية الواسعة التى يستبيحها الفلاسفة لأنفسهم فى النظر وفى تلك الثقة القوية التى يمنحون عقولهم إياها خطرا داهما على الدين ، لأن العقل فى رأيهم قاصر عن إدراك كل أسرار الدين . وفوق ذلك فهو قد يضل وينخدع كما هو ديدنه ، فتكون هنا الطامة الكبرى على الدين ومعتنقيه . ويرى « البارون كارادى فو » أن الذى روّع المتكلمين هو أنهم رأوا الفلاسفة يحطون من شأن الوحى ويسوّون به الفلسفة الإغريقية بل يقدمونها عليه .

(١) التمثيليون هم من قالوا بأن كل ما ورد فى القرآن والحديث من متع مادية لا يخرج عن كونه تمثيلا لافهام العامة لأنه لو كان حقا ، لحط من شأن الاسلام لغلبة الشهوات فيه .

ولما كان صوت الفلسفة فى العهد الذى شب فيه الغزالى قد خفت بموت ابن سينا ولم يبق لها من أنصار إلا بضعة أفراد خاملين من تلاميذ هذا الحكيم كان من الطبيعى أن يتجه أكثر نضال أبى حامد وألذعه الى ذلك الفيلسوف العظيم ، لأن روح الفلسفة الحقة الجديرة بالدراسة والنقد كانت حالة فى كتب ابن سينا . فمن أراد أن ينال من هذه الروح فلا سبيل له إلا هذه المؤلفات . وهكذا فعل الغزالى ، فكان لنقده فى كتاب « التهافت » تلك القيمة التى هزت ابن رشد فيما بعد وحملته على الدفاع عن الفلاسفة بذلك الأسلوب العنيف الحاد فى كتاب « تهافت التهافت » ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

رذيلة الجهل

روى عن سهل بن عبد الله التسترى الصوفى أنه قال : ما عصى الله أحد بمعصية أشد من الجهل.

فقيل : يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟

فقال : نعم ، الجهل بالجهل ، مطية من ركبها زل ، ومن صحبها ذل ، وقيل : من الجهل صحبة الجهال ، ومن المحال محاولة ذوى المحال . خير المواهب العقل ، وشر المصائب الجهل . الجاهل يطلب المال ، والعاقل يطلب الكمال . الجهل بالفضائل من أقبح الرذائل .

وكان سفيان الثورى يقول : تعلموا العلم وإن لم تنالوا به حظا ، فلأن يذم الزمان لكم ، أحسن من أن يذم بكم ، أى لأن يُذم الزمان لإضاعة أهله لكم ، وعدم تقديرهم قدركم ، خير من أن يذم بكم . فيقال هذا زمان فسد أهله ، وضلوا عن سواء السبيل ، ويضربون الأمثال بأعمالكم.